# القسم الثاني
# العربيـــة السعوديـــة
# الفصـــل الرابـع
# مملكة آل سعـــود

لقـد توحد القـسم الأكـبر من الجـزيرة العربيـة منذ عـام ١٩٢٧م تحت سلطة واحدة، تحت لواء الملك الراحل عبـد العزيز آل سعود [١]، رحمه الله، وحمل ذلك القسـم الموحد اسم: « مملكة الحـجاز ونجـد وملحقـاتها». وفي عـام ١٩٣٢م، صدر مرسوم ملكي أعطى هذا الكيان الجديد اسـم «المملكة العربية السعودية»[٢] . وما زال تنظيم المملكة العربية السعودية حتى يوم الناس هذا يأخذ بالحسبان خصوصيات المناطق المختلفة التي تكونت منها.

لقد كان الملك عبد العزيز، رحمه الله، حتى وفاته في ٩ نوفمبر«تشرين الثاني» ١٩٥٣م، يجسد البلد الذي أرسى قواعده. وكان هناك تخوف من أن تؤدي وفاته إلى أن تتغلب القوى الانفصالية على الولاء لـلأسرة السعودية. ولكن الابن الأكبر للملك

---

(١) تلقب الملك عبد العـزيز، رحمه الله، بعدد من الألقاب خلال حيـاته، ناهيك عن لقب الإمام الذي عُرف به أجداده:

| | |
|---|---|
| -أمير نجد ورئيس عشائرها | ١٣١٩هـ(١٩٠٢م) |
| -سلطان نجد وملحقاتها | ١٣٣٩هـ(١٩٢٠م) |
| -ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها | ١٣٤٤هـ(١٩٢٦م) |
| -ملك الحجاز ونجد وملحقاتها | ١٣٤٥هـ(١٩٢٧م) |
| -ملك المملكة العربية السعودية | ١٣٥١هـ(١٩٣٢م) |

انظر الأطلس التاريخي للمملكة العربية السعودية، دارة الملك عبد العزيز، ص ١٥٩(المترجم).

(٢) انظر وثائق حـول المملكة العربيـة السعودية، رقـم ١,٥٢٩ ،-المملكة العربيـة السعودية فـي الشرق الأوسط المعاصر، التوثيق الفرنسي، باريس، ١٩٥٧م.

عبد العزيز، الأمير سعود، ولي العهد منذ عام ١٩٣٣م، اعتلى العرش دون أي حادث ولو بسيطاً.

كان على الملك الجديد سعود بن عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود، أن يواجه قضايا ومشكلات تزداد مع الأيام تعقيداً، وما كان لسلفه العظيم أن يتوقعها. ففي الداخل، كان التطور الاجتماعي[٤٠] الاقتصادي يسير بخطى حثيثة؛ وفي الخارج، كانت أحداث العالم الإسلامي، والشرق الأوسط تتخذ شيئاً فشيئاً بُعْداً دولياً، ولم يكن بإمكان سيد الأماكن المقدسة أن يظل بعيداً عنها.

إن الغنى الظاهري لبلد ليس لديه إلا قليلاً من أسس التطور الاقتصادي الحقيقية، وسياسة الوحدة العربية، والإسلامية على وجه الخصوص، وأخيراً «الحياد»، كل ذلك، ساعد في وضع المملكة العربية السعودية في طليعة الدول النامية، التي تمثل تحركاتها عاملاً مهماً في العلاقات الدولية المعاصرة[١]. إن السؤال الذي يثيره هذا البلد في ذهن من يراقب الأوضاع في منطقة الشرق الأوسط، والاختصاصي في العلاقات الدولية، هو معرفة مدى نجاح التجربة السعودية، وإمكانية استمرارها. إن معالم النظام السعودي لم تشهد إلا تغيراً طفيفاً تحت ضغط التقدم والثروة. إلا أن قوى اجتماعي جديدة ظهرت، ولكنها لم تتخذ بعدُ شكلاً معيناً، ولا تنظيماً مميزاً. وسنعلم خلال ربع القرن المقبل، إذا كانت المملكة العربية السعودية قادرة على الاستمرار في فرض نفسها واحدة من كبريات الدول العربية والإسلامية في الشرق الأوسط. هل سيجد نظامها المرونة المطلوبة للاستجابة إلى ضرورات المعاصرة؟ أم أنه على العكس، سيكون مصير الصرح الذي بناه الملك عبد العزيز كما كان مصير الدولة السعودية الأولى في القرن التاسع عشر، تجزأ جديد لمملكة غير متجانسة، تتوق بعض الأطراف فيها إلى العودة إلى الفوضى القبلية[٢] ؟

---

(١) انظر رسالتنا: السياسة البريطانية في العربية الجنوبية، محاولة في علم الاجتماع السياسي الدولي، المعهد الدولي للدراسات والبحوث الدبلوماسية، باريس، ١٩٥٦م.

(٢) خاب فأله والحمد لله، فالمملكة اليوم هي أكثر تماسكاً، وينتشر فيها الأمن، والشعور الوطني، والولاء =

ذلك هو السؤال الذي يثيره هذا البلد، الذي تزيد مساحته أربع مرات على مساحة فرنسا، وسكانه أقل بعشر مرات. وإذا أردنا فهم التطورات التي يشهدها، فينبغي أن نعرف، ولو باختصار، الأسس التي قامت عليها هذه «المملكة ذات الأساس الديني»، حسب العبارة الموفقة التي أطلقها روبير مونتيني[1] Robert Montagne .

## دعوة محمد بن عبدالوهاب والدولة السعودية الأولى

في منتصف القرن الثامن عشر [٤١] ظهر في قلب الجزيرة العربية تيار إصلاحي توحيدي، كان الباعث عليه الانحطاط العام في العادات والأخلاق. ففي نحو عام ١٧٤٥م، قام فقيه حنبلي من السنة، من قبيلة بني تميم النجدية ينشر تعاليمه بحماسة، ويدعو فيها إلى العودة إلى الإسلام الحقيقي، كما كان في عهد النبي ﷺ. لم يأت محمد بن عبد الوهاب بمذهب جديد، ولكنه كان يدعو إلى إتباع أصح التفاسير التي تناولت رسالة النبي محمد ﷺ.

منذ القرن العاشر الميلادي ارتدت الجزيرة العربية إلى فوضى الأسر والقبائل المتنافسة، الغيورة على استقلالها. لم تلق دعوة محمد بن عبد الوهاب في بادئ الأمر أي نجاح. وتعرضت دعوته المخلصة إلى تطهير الدين مما شابه إلى الإدانة، وحاربها أمراء القبائل الصغيرة؛ إلى أن وجد المصلح في أخر الأمر مستمعاً واعياً في شخص شيخ لم يكن بعدُ مشهوراً، إنه زعيم مدينه الدرعية، قرب الرياض، في أواسط نجد. كان هذا الشيخ جد عبد العزيز بن سعود، ومؤسس الأسرة المالكة السعودية. لقد وفر محمد بن سعود، باتباعه الوهابية، لهذا التيار الإصلاحي السلطة والأساس الدنيويين اللذين كان بحاجة إليهما لينتشر بين الناس. نشر عبد العزيز بن محمد بن سعود في

---

= للأسرة الحاكمة، والصرح الذي بناه الملك عبد العزيز، رحمه الله، سيظل بإذن الله شامخاً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها(المترجم).

(١) روبير مونتيني: حضارة الصحراء، هاشيت، باريس، ١٩٤٧م.

سلسلة من الانتصارات العسكرية، المبادئ الإصلاحية في الجزيرة العربية كلها، وتجاوزها إلى سورية، وبلاد الرافدين، وحتى في آسيا الوسطى غير العربية. لقد امتدت تعاليم الشيخ محمد بن عبدالوهاب نحو الجنوب معتمدة على محاربي القبائل البدوية في أواسط الجزيرة العربية ، فوصلت حتى عُمان، ونحو الغرب حتى الحجاز، ونحو الشمال حتى العراق، ونحو الشرق حتى الأحساء. وأتم سعود خليفة عبد العزيز الأول فتوحات أبيه وجده، فضم إلى مملكة نجد وملحقاتها المدينتين المقدستين، مكة المكرمة، والمدينة المنورة. إن دعوة محمد بن عبد الوهاب التي تدعو إلى تطهير الدين مما شابه، والتي نشرتها أسلحة آل سعود، أصبح لها أتباع كثيرون. ففي بداية القرن الثامن عشر الميلادي، امتدت الدولة السعودية من البحر الأحمر إلى الخليج العربي، ومن عُمان إلى بلاد الرافدين. لقد أصبح هذا التوسع السريع القوي يهدد الإمبراطورية العثمانية التي دب فيها الضعف والانحلال؛ فطلب سلطان استانبول من عامله [٤٢] على مصر، محمد علي، أن يحارب الوهابيين. ونجح محمد علي بعد عدد من المحاولات الفاشلة في هزيمة جيوش سعود الذي قتل في أثناء المعارك. وفي عام ١٨١٥م، أقرَّ خليفته بالسيادة المطلقة للباب العالي. ولكن ليس لوقت طويل[١] .

وأمام العصيان المستمر للقبائل البدوية أرسل باشا مصر إلى الجزيرة العربية أفضل قواته، يقودها ابنه إبراهيم باشا، فهزم الدرعية هذه المرة شر هزيمة، لأنه استطاع أن يستميل القبائل الكبرى المنافسة لحكام الرياض[٢]، فدحر القوات السعودية، واستولى بسرعة على الدرعية والرياض، ونهبهما. وأُسر عبد الله ابن سعود زعيم الأسرة، وقطع رأسه في إستانبول. وبعد عدة سنوات قامت حملة أخرى بإخماد الثورة التي اندلعت في نجد في مهدها، واستولت على اليمن في طريقها، وخربت أو أحرقت كل ما وجدته قبل أن تنسحب من الجزيرة العربية عام ١٨٤٠م.

(١) ليس هذا بصحيح؛ فالهزيمة حصلت أيام تولي عبد الله بن سعود الحكم، ولم يقتل سعود، وإنما توفي ليلة الحادي عشر من جمادى الأولى سنة ١٢٢٩هـ/ ١٨١٤م بعلة وقعت في أسفل بطنه أصابه منها حصر في البول. انظر مواد لتاريخ الوهابيين، م.س. ص ١٥٣(المترجم).

(٢) الصحيح أنهم حكام الدرعية، أما الرياض فلم يتم حكمها واتخاذها عاصمة إلا في عهد الإمام تركي بن عبدالله عام ١٢٤٠هـ.

وبذلك أصبحت الدولة السعودية الأولى أثراً بعد عين.

لقد ترك المرتزقة الأتراك والمصريون وراءهم جزيرة عربية مهدمة، يمزقها التناحر المستمر بين القبائل. وانقضى عدد من السنوات في القتال دون توقف بين المتنافسين الرئيسيين، وقد أفضى ذلك في عام ١٨٨٥م إلى انتصار مؤقت لآل الرشيد، أمراء شمر، وحلفاء الأتراك، والخصوم الرئيسيين لآل سعود. وحقق محمد بن رشيد نصراً حاسماً، واستولى على الرياض، وبعد عدة سنوات لجأ الشيخ عبد الرحمن الفيصل آل سعود إلى الكويت عند أمير من أصدقائه. وفي الكويت عام ١٩٠٠م، تخلى الزعيم المسن المنفي عن حقه في الحكم لصالح ولده الشاب عبد العزيز، ثاني من يحمل هذا الاسم في الأسرة.

## المملكة العربية السعودية[1]

في عام ١٩٠٢م شن الأمير عبد العزيز على رأس فئة قليلة من أنصاره هجوماً مفاجئاً على الرياض. واستطاع بالحنكة الاستيلاء على عاصمة أجداده. وتحصن فيها. ونظم منها حملات انطلقت لاستعادة أراضيه. لقد بسط الأمير الشاب سلطته بإرسال الحملات المتتالية، وخاض حروباً امتدت سنوات عديدة بلا كلل ولا ملل [٤٣] فسيطر على نجد، ثم على القصيم، وبلاد شمَّر، أي قلب الجزيرة العربية كله.

في عام ١٩١٢م أسس عبد العزيز آل سعود الهيئة الدينية المسماة: الإخوان، التي ذاع صيتها. لقد انتقى أفرادها بين أكثر القبائل إخلاصاً له، وأقام هؤلاء البدو في هجر زراعية حضرية، أُنشئت خصيصاً لهم في أواسط نجد، بالقرب من العاصمة.

---

(١) يضع المؤلف عنواناً فرعياً هو: الإمبراطورية الوهابية السعودية الثانية، ثم يتحدث عن أطوار تأسيس المملكة العربية السعودية وتوحيدها. وواضح أن معلوماته عن تاريخ آل سعود في دولتهم الأولى والثانية غير دقيقة(المترجم).

أول تلك الهجر كانت الأرطاوية، جنوب الرياض[1]. هؤلاء الإخوان المخلصون، «المحامون الحقيقيون عن العقيدة»، الذين اتخذوا من صحابة النبي ﷺ قدوة، هم الذين أسهموا إسهاماً فاعلاً في فتوحات ابن سعود اللاحقة كلها، وما زالوا حتى يوم الناس هذا[2] درع المملكة الجديدة الصلب.

وفي عام ١٩١٣م، استولى عبد العزيز بعد حملة صاعقة، ودون مقاومة تُذكر على الأحساء، ووصل بذلك أمير نجد إلى الخليج العربي. وكانت بريطانيا، التي أزاحت بالتدريج منافسيها الأوروبيين كلهم، تعدُّ المنطقة جزءاً من « منطقة نفوذها الطبيعية » فبادرت بإرسال أحد مبعوثيها السياسيين إلى الرياض، الكابتن شكسبير، في مهمة محددة، تتمثل في تشجيع عبد العزيز على قتال أعدائه القدامى، آل رشيد أمراء شمَّر. وكان البريطانيون يرون في ذلك مصلحة مزدوجة: صرف نظر الأمير السعودي عن الاهتمام بمنطقة الخليج العربي، وإضعاف القوة التركية، التي يناصرها آل الرشيد، في الوقت الذي اندلعت فيه في أوروبا الحرب العالمية الأولى.

(إلا أن شكسبير قُتِل خلال أولى معركة خاضها. واستمر ابن سعود في مبادرته الخاصة دون «مستشار» بريطاني. وبينما كان الملك عبد العزيز يقاتل خصومه التقليديين الذين أخضعهم في نهاية الأمر، قرر جهاز المخابرات البريطاني، والمكتب العربي في القاهرة دعم الهاشمي الشريف حسين، شريف مكة المكرمة، الذي سيصبح خصم ابن سعود الأكبر. لقد كان ذلك مبنياً على تعليمات الكولونيل الشهير لورنس، الذي ارتكب بذلك غلطة فادحة لم تظهر نتائجها حينئذٍ. ولولا حقد لورنس على عبد العزيز لكان تاريخ الشرق الأوسط غير ما هو عليه اليوم، ولكان بترول الجزيرة بريطانياً، وليس أمريكياً)[3] [٤٤].

لقد حدثنا لورانس نفسه بالتفصيل عما قام به في الحجاز إلى جانب الشريف حسين[4]

---

(١) الصحيح أنها شمال الرياض ( المنيف).

(٢) أي في عام ١٩٥٨م سنة تأليف الكتاب.

(٣) وجهة النظر التي وضعناها بين قوسين ليست صحيحة فالملك عبدالعزيز رحمه الله لم يكن بحاجة إلى مستشار بريطاني وبترول المملكة عربي سعودي لا بريطاني ولا أمريكي. وليس أدل على ذلك من أن الملك فيصل رحمه الله استخدمه سلاحاً في حرب رمضان. (المترجم).

(٤) لورانس : T. E. LAWRENCE أعمدة الحكمة السبعة، بايو، باريس.

ولكن ذلك طالته المبـالغة، وحوله المعجبـون بهذا الرجل الأسطورة، إلى رواية. ومما يؤسف له أن مفـاهيمه الخـاطئة أثرت تأثيراً بالغـاً في السياسـة العربية لبـريطانيا منذ أربعين سنة. وربما كان ذلـك سبب الإخفـاق الذي لقيتـه تلك السياسـة، التي كانت الوقائع تدحضها باستمرار. لقد كان سـوء تقديره بشأن عبد العزيز مثالاً صارخاً على ذلك الإخفاق.

إذاً، لقد قرر لورانس استخدام شريف مكة المكرمة لاستنهاض القبائل ضد السلطان العثماني. وإن فاعلية ما يسمى «ثورة في الصحراء» هي موضع شك، شأنها شأن شخصية المحرض عليها. وأجد من المفيد هنا، سعياً للحقيقة، الاستشهاد برأي خبير فرنسي. ينبغي بلا شك أن نعطي لأحداث العصـر في العربية الصحراوية أحجـامها الحقيقـية، وإلا فإنها سـتتـحـول إلى أسطـورة. يكـتب الجنرال إدوارد بريمـون Edourd Brémond، القائد السابق للبعثة العسكرية الفرنسية في الجزيرة العربية عن الثورة العربية قائلاً: «نعلم أن الهدف الأساسي من الحـرب في الجزيرة العربية تمثل في أن تدفع بريطانيـا للقبائل كي تخرب سكة حديد الحجاز، وهي القبائل نفسـها التي كانت تدفع لها الحكومة التركية لحمـاية السكة وحراستـها. ذلك ما سُـمِّيَ« الثورة في الصـحراء»، وترافق كل ذلك بمبالغات بهلوان ضلل الرأي العام في أوروبا »[1].

على الرغم من قسوة هذا الحكم، إلا أنه يطابق ما نعرفه عن السياسة البريطانية في الجزيرة العربية، إنها سياسة « تأليف الـقلوب» وهي سياسة استطاع عبد العزيز أن يستغلهـا لفترة طويلة[2] . فبريطانيا العظمى التي كـانت تدفع لشريف مكة المكرمة، كانت تحرص في الوقت نفسه على إرضاء أمير الرياض.

---

(١) الجنرال إدوارد بريمون: اليـمن والسـعـودية، الجـزيرة العـربيـة الحـالية، شـارل لافـوزل وأولاده Charles Lavauzelle et Fils، باريس، ١٩٣٧م.

(٢) انظر على وجه الخصوص رسالتنا المذكورة سابقاً: السياسة البريطانية في العربية الجنوبية.

# التفوق البريطاني

بينما كان لورانس يدعم الشريف حسين، ويَعِدُه بتاج [٤٥] «الجزيرة العربية الكبرى»، كان المقيم السياسي البريطاني، القادم من الكويت، يحط رحاله عام ١٩١٧م في قلب الجزيرة العربية: إنه هاري سانت جون بريدجير فيلبي Harry St. John Bridger Philby، الذي اعتنق الإسلام وسُمِّي عبد الله، وقام خلال ثمانية وثلاثين عاماً بعمل استثنائي.

كان عبد العزيز بن سعود قد أبرم في ٢٦ ديسمبر «كانون الأول» ١٩١٥م مع بريطانيا العظمى معاهدة كالمعاهدة التي تربط البحرين أو الكويت بها. وهي معاهدة نسيها المؤرخون أو تناسوها، لأنها لم تكن مشرفة لا للعرب ولا لبريطانيا [١] وتعهد بموجبها البريطانيون منح الملك عبد العزيز مساعدة مالية شهرية قدرها ٥٠٠٠ آلاف جنيه إسترليني، كما تعهدت بريطانيا بحمايته من أي اعتداء خارجي، واعترف لها مقابل ذلك بحق الإشراف على علاقاته الخارجية، وتعهد بعدم التنازل عن أي شبر من أراضيه لأي قوة أخرى، وألا يقيم علاقات مع أي دولة إلا بعد موافقة الحكومة البريطانية، شأنه في ذلك شأن أمراء الخليج والجنوب العربي[٢]. ويروي الجنرال بريمون، نقلاً عن صحيفة التايمز حينئذٍ، أن سلطان نجد تلقى في الفترة بين ١٩١٧م و ١٩٢٤م مساعدات من التاج البريطاني تقدر بـ ٤٧٧٣١٠ جنيهات إسترلينية ذهباً. ويقف المرء وقفة المندهش أمام ازدواجية البريطانيين ومكرهم، فقد كانوا يضمنون ولاء

(١) إلا أن بنوا ميشان يشير إلى اتفاق العقير، وإلى قبول ابن سعود مساعدة بريطانية، ابن سعود، ألبان ميشيل، باريس، ١٩٥٥م. وانظر الترجمة العربية، ص ١٣٢-١٣٣ وتعرف هذه الاتفاقية بمعاهدة دارين ( القطيف) وكانت في ١٨صفر ١٣٣٤هـ .( المترجم).

(٢) انظر شوادران B. SHWADRAN، الشرق الأوسط، البترول والقوى العظمى، نيويورك، ١٩٥٥م (٢٨٥ صفحة). -وانظر لونغريغ : S. H. LONGRIGG البترول في الشرق الأوسط، مطبوعات جامعة أكسفورد، لندن، ١٩٥٤م(٢٧ صفحة). وانظر أنواع الاتفاقيات في دراستيً حول إمارات الخليج العربي والمستعمرة والمحميات البريطانية في عدن، التوثيق الفرنسي.

المتنافسين، حسين وعبد العزيز، ليظلوا أسياد الموقف، كائناً من كان المنتصر. ومع ذلك فهناك فارق في المعاملة بين الزعيمين، إذ كان حسين يتلقى مساعدة هي أربع مرات أكثر مما يتلقاه عبد العزيز؛ لقد كان يحصل على ٢٠ ألف جنيه إسترليني شهرياً مقابل ٥ آلاف لعبد العزيز. لقد كان هناك تنافس [٤٦] سيتحول إلى عداوة مستحكمة بين لورانس وفيلبي، لأن كل واحد منهما يدعم أميراً طموحاً، ويستند كل واحد منهما في موقفه على رؤساء لهم مواقفهم الخاصة، وخياراتهم الخاصة[١] .

## توحيد المملكة

كانت الحرب العالمية الأولى تلفظ أنفاسها الأخيرة، عندما كلَّف الملك حسين ابنه عبد الله-أمير الأردن وملكها فيما بعد-باسترجاع واحة الخرمة من الوهابيين. وحدث أن فاجأت قوات عبد العزيز قوات شريف مكة المكرمة في الليل على حين غرة، فأبادتها، ونجح الأمير عبد الله وحفنة من أنصاره في الإفلات بصعوبة. وبدأت بذلك المنازعات بين الهاشميين والسعوديين، وسيكون لتلك المنازعات آثارها الكبيرة في تاريخ الشرق الأوسط خلال السنوات الأربعين القادمة.

استشاط حسين الطموح غضباً من إخفاق ولده، واستشراء القتل في قواته، فحاول حينئذٍ استنهاض عسير ضد الوهابيين. ولكن حملة سريعة بقيادة الأمير فيصل ، ثاني أبناء الملك عبد العزيز الأحياء، انتهت بضم عسير إلى مملكة آل سعود في عام ١٩١٩م. وكان الأمير فيصل، قبل ذلك بقليل، قد ذهب إلى لندن، حيث

(١) يتحدث بنوا ميشان في كتابه: ابن سعود، نشر ألبان ميشيل، باريس، ١٩٥٥م، ص ٢٠٨، حديثاً هاماً حول ما كانت تتمتع به السلطتان في لندن وبومبي من استقلال، وعما كان من تنافس بين المكتب الهندي والمكتب العربي، اللذين ينتمي إليهما بالترتيب فيلبي ولورانس. لقد ركزت في رسالتي على هذا المفهوم المرن للمقيم السياسي في الأراضي الأجنبية، هذا المقيم الذي كان البريطانيون يتركون له حرية اتخاذ المبادرات الهامة، وكان ذلك غالباً ذا نتائج إيجابية(انظر: السياسة البريطانية في العربية الجنوبية، مذكور سابقاً). وانظر الترجمة العربية لكتاب بنوا ميشان، ص ١٤١-١٤٣(المترجم).

خطا في سن الرابعة عشرة، أولى خطواته في الدبلوماسية الدولية، بإشراف فيلبي. وفي عام ١٩٥٨م أصبح الأمير فيصل نفسه على رأس وزارة الخارجية في المملكة العربية السعودية.

إن موت زعيم آل رشيد في عام ١٩٢٠م، شجع ابن سعود على التخلص نهائياً من خصومه في قلب الجزيرة العربية وشمالها. وكان الضعف قد دبَّ منذ زمن في آل رشيد، وتولى الزعامة فيهم أمير متردد، خلف المحارب القديم الذي رحل [٤٧]. واستطاع السعوديون بعد معركة قصيرة الاستيلاء على بلاد شمر، ووسعوا رقعة المملكة. وقد كان الملك عبد العزيز يتبع حيال خصومه المهزومين من الأمراء سياسة ظل وفياً لها طويلاً، لقد كان رحيماً بهم، يتزوج منهم، ويشجع أبناءه على الزواج من أخوات أعدائه القدامى وبناتهم.

ولم يبق لعبد العزيز، الذي كان ما يزال أمير نجد، سوى خصم عنيد واحد هو الهاشمي حسين، شريف مكة المكرمة. ولم يكن ينقص مملكة نجد وملحقاتها السعودية إلا الحجاز ليكون لها وجهها الحالي. ولا ريب أن جنون العظمة لدى الشريف حسين قدم للوهابيين الحجة المناسبة ليغذوا السير نحو البحر الأحمر.

أصبح لقب خليفة المسلمين بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية، وخلع السلطان في استانبول معطلاً. وفي ٥ مارس«آذار» ١٩٢٤م، وخلال احتفال رسمي، أعلن الملك حسين نفسه خليفة على المسلمين، مخالفاً بذلك رأي عدد من مستشاريه. وقد أثار هذا التصرف حفيظة الوهابيين، ولكن ذلك لم يكن ليمنع الإخوان الأتقياء من أداء فريضة الحج، إحدى أركان الإسلام الخمسة؛ مما يعني أنهم سيتوجهون إلى مكة المكرمة التي يسيطر عليها الشريف حسين.

لقد كان عبد العزيز يخشى أن تُعدَّ هذه الرحلة اعترافاً رسمياً بحسين الهاشمي خليفة للمسلمين، فمنع أتباعه من أداء الحج في ذلك العام، مما أغاظهم[1]... وعم الاستياء في صفوف الإخوان. حينئذٍ جمع ابن سعود رفاق النضال ليشرح لهم أنه

(١) الصحيح أن الشريف حسين ــ رحمه الله ــ هو الذي منعهم من الحج ( المنيف).

ليس هناك ما يمنعهم من التوجه إلى مكة المكرمة، والأماكن المقدسة الأخرى في الحجاز لفتحها، وإعادتها إلى العقيدة الصحيحة، أي الحركة الإصلاحية التي دعا إليها محمد بن عبد الوهاب. واستقبل الإخوان المحاربون هذا الاقتراح بحماسة، وراحوا دون إبطاء يستعدون لهذا الحج الفريد.

وفي أغسطس«آب» ١٩٢٤م، وصل الحجاج المحاربون من الوهابيين إلى الطائف، جنوبي شرقي مكة المكرمة، وهي المقر الصيفي للملك. وهرب الحسين إلى مكة المكرمة، ولم يتأخر في التنازل عن العرش لابنه علي [٤٨]. وبعد بضعة أيام اضطرت القوات الهاشمية إلى إخلاء مكة المكرمة لتدخلها، دون مقاومة، قوات ابن سعود. وقبل أن يتم الإخوان حجهم عمدوا إلى تطهير مكة المكرمة، فهدموا عدداً من القباب، وأماكن النذور، والمقامات التي تسبغ على المكان في رأيهم صبغة وثنية.

في هذه الأثناء، كان أخر الهاشميين الذين التجئوا إلى جدة مع ملكهم المخلوع يستعدون، والأسى يعتصر قلوبهم، لمغادرة أرض الحجاز التي حكمها أجدادهم بلا انقطاع منذ ثمانية قرون. واعتزل حسين المسن في قبرص تحت حماية بريطانيا التي كفلت مستقبل ولديه فيصل وعبد الله بتنصيبهما على عرشيْ العراق، والأردن التي استحدثت للمناسبة، وبعد محاولة في دمشق أفشلها الجنرال غورو.

## تنظيم الأراضي المفتوحة

في مطلع عام ١٩٢٥م، وبعد مرور ثلاثة وعشرين عاماً على دخول الأمير عبد العزيز آل سعود الرياض، أصبح يسيطر على المنطقة الممتدة من الخليج العربي إلى البحر الأحمر، ومن رمال النفود الكبير إلى صحراء الربع الخالي. وما خلا المناطق الجبلية الحصينة في عُمان واليمن، وحزام طويل من الأرض الساحلية يمتد من باب المندب إلى قطر، أصبح ابن سعود يسيطر على القسم الأعظم من الجزيرة العربية.

ولكن سلطته لم تكن بعدُ بمنأى عن الأخطار، لذلك تخلى مؤقتاً عن أي مشاريع توسعية جديدة. وفضل الالتفات إلى تنظيم الأراضي التي فتحها. وإلى إنشاء هيكل إداري لأراضٍ ذات عادات وتقاليد متباينة، وتوحيدها، ونشر الأمن فيها. وكانت تلك هي المرحلة الأخيرة في مسيرة تأسيس المملكة العربية السعودية.

ولما رحل الهاشميون عن جدة، دخلها سلطان نجد وملحقاتها في ٢٥ ديسمبر «كانون الأول» ١٩٢٥م. وأعطى ممثلي القوى العظمى ضمانات تطمئنهم، وتضمن حسن نواياهم تجاهه. وبعد بضعة أيام جاء إلى مكة المكرمة، حيث انعقد في ٨ يناير«كانون الثاني» ١٩٢٦م مجلس ضم أعيانها، ورجال الدين فيها، وأقره المجلس ملكاً على الحجاز. وأصبح لقبه منذ ذلك«**ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها**» [٤٩].

كان الملك الجديد على وعي تام بمدى التفاوت في التطور بين الحجاز ونجد وبقية المناطق الأخرى. وفي ٣١ أغسطس«آب» ١٩٢٦م أعلن الملك عبد العزيز قانوناً تنظيمياً سُمِّيَ «دستور» مملكة الحجاز. وعلى الرغم من أن تعديلات متلاحقة طرأت على ذلك الدستور، فإن بعض مواده ظلت موجودة حتى وفاة الملك عبد العزيز، وظل هذا النص إحدى الوسائل الرئيسية لتنظيم الدولة السعودية الموحدة كلها. إن النقطة الأساسية في هذا الدستور، في رأينا، هي ما جاء في المادة الخامسة التي تقول: «إن إدارة شؤون مملكة الحجاز كلها تابعة لجلالة الملك عبد العزيز الأول بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود. ويلتزم جلالته بقوانين الشريعة»[١] .

ليس هناك دستور للمملكة كلها، وإن الدستور الموجود في الحجاز هو دستور المملكة كلها. وكان من المتوقع منذ عام ١٩٣٢م، أن يصدر دستور جديد للمملكة العربية السعودية. ولكنه، ما خلا التعديلات التي طرأت على دستور الحجاز، لم تنشر أي مواد دستورية، ما عدا المواد التي تنظم عمل مجلس الوزراء، والمكاتب المرتبطة به في ١٧ مارس« آذار» ١٩٥٤م.

(١) وثائق عن العربية السعودية، م. س.، والمملكة العربية السعودية في الشرق الأوسط المعاصر، م. س.، التوثيق الفرنسي، باريس.

وبمجرد أن بسط الملك عبد العزيز سيطرته على الأماكن المقدسة للإسلام، اعترفت له القوى العظمى بذلك-وعلى رأسها فرنسا وبريطانيا.

وفي ٢٩ يناير«كانون الثاني» ١٩٢٧م، صدر مرسوم ملكي بتحويل نجد وملحقاتها إلى مملكة متحدة بمملكة الحجاز. ولم تتأخر بريطانيا عن الاعتراف بالوضعية الجديدة حسب اتفاقية جدة الموقعة في ٢٠ مايو«أيار» ١٩٢٧م، وتنص مادتها الأولى على « الاستقلال الكامل والمطلق لملك الحجاز ونجد وملحقاتها». وحسب المادة السادسة يعترف الملك عبد العزيز بوضع بريطانيا المتميز في الكويت، والبحرين، وقطر، وساحل القراصنة، ويتعهد بأن تظل علاقاته بهذه البلاد سلمية وودية[١] .

ونظمت اتفاقات ملحقة [٥٠] وضع الحدود مع الجيران الشماليين، العراق، والأردن الهاشمية، والكويت، التي مازالت تحت الحماية أو الانتداب البريطاني.

اكتسبت معاهدة جدة أهمية كبيرة. لأنها كانت في واقع الأمر وثيقة ولادة رسمية للمملكة العربية السعودية باعتبارها دولة حسب القانون الدولي، ودخولها فيما اصطلح على تسميته « عصبة الأمم»، ولأنها ألغت معاهدة عام ١٩١٥م، وألغت بذلك روابط التبعية المباشرة لبريطانيا. لقد كانت المعاهدة القديمة تضع ابن سعود في مستوى واحد مع الشيوخ الصغار، المتصارعين في ساحل القراصنة، أو في مستوى شيخ عدن التي أصبحت بعد ذلك محمية بريطانية.

أما المعاهدة الجديدة فقد رفعت الأمير الذي كان فيما مضى منفياً في الكويت إلى مصاف ملك يبسط سلطانه على مملكة مترامية الأطراف.

ولكن هذا الاتفاق لم يكن يروق الجميع، فقد رفض الإخوان معاهدة جدة، وأغضبهم التراجع عن غزو بلاد الرافدين الخضراء، ناهيك عن أنها في نظرهم معاهدة

(١) انظر في ملحق دراستي المذكورة سابقاً النص التام لاتفاقية جدة، بما في ذلك تبادل المعلومات.(المملكة العربية في الشرق الأوسط. الشرق المعاصر، م. س.، التوثيق الفرنسي، باريس، ١٩٣٧م.)

مع الكفار. فتمرد عدد من زعمائهم علناً على الملك عبد العزيز. وتعرض العرش السعودي الحديث العهد لامتحان حاسم. لقد كان على الملك عبد العزيز أن يواجه بين عامي ١٩٢٧م و ١٩٢٩م، والألم يعتصره، تمرد عدد من رفاقه القدامى الذين لم يستطع أن يعيدهم بالحسنى إلى جادة الصواب. كان على الملك عبد العزيز أن يقف موقفاً حازماً مهما كلفه ذلك: لقد كان الخطر يتهدد الصرح الذي بناه خلال ربع قرن من الزمن. لقد دعَّم الملك سلطته بطريقة لا يمكن إنكارها عندما قتل أو نفى رؤوس الفتنة. ورجحت كفة الصراع لصالحه. وقطف سيد الحجاز ثمار جهده عندما رفعت فرنسا في نهاية عام ١٩٢٩م مستوى تمثيلها الدبلوماسي في جدة من قنصلية إلى مفوضية. وسرعان ما حذت القوى الأخرى الممثلة في الجزيرة العربية حذو المبادرة الفرنسية.

## المرحلة النهائية

وبعد ثلاث سنوات اتُّخذ القرار الحاسم لتوحيد البلاد وإرساء أسس المملكة العربية السعودية[٥١]. ففي ١٨ سبتمبر« أيلول» ١٩٣٢م تقرر بالمرسوم الملكي رقم ٢٧١٦ ، وفي مادته الأولى: «يُحول اسم «المملكةالحجازية النجدية وملحقاتها» ويصبح لقبنا بعد الآن «ملك المملكة العربية السعودية»[١] . وتذكر المواد ٣ و٤ و٥ أن التحويل لا يؤثر في المعاهدات والاتفاقات والالتزامات الدولية، ولا في المقاولات والعقود الإفرادية، ولا في النظامات والتعليمات السابقة، ولا في تشكيلات الحكومة الحاضرة سواء في الحجاز ونجد وملحقاتها. وتَعِدُ المادة ٦ بسن دستور عام، إلا أنه لم يحدث شيء من هذا القبيل.

(١) انظر وثائق عن المملكة العربية السعودية، م. س. لقد صدر المرسوم الملكي بتحويل اسم المملكة بتاريخ ١٧ جمادى الأولى عام ١٣٥١هـ، ونشرته صحيفة أم القرى في العدد ٤٠٦، تاريخ ٢٢ جمادى الأولى ١٣٥١هـ/ ٢٣ سبتمبر ١٩٣٢م. انظر الأطلس التاريخي للمملكة العربية السعودية، دارة الملك عبد العزيز ١٤٩هـ/١٩٩٩م، ص ٢١٠(المترجم).

مع ذلك، وعلى الرغم من أننا اعتدنا على أن نعد القانون التنظيمي للحجاز دستوراً للمملكة العربية السعودية كلها، فقد تم الحفاظ على خصوصيات مناطق المملكة المختلفة، وحوفظ على منصب نائب الملك في الحجاز، ومُنحت بعض المناطق الأخرى شيئاً من الاستقلال الذاتي. يمتاز الحجاز بإدارته المتطورة، المنظمة نوعاً ما، ويعود ذلك إلى طبيعته الدولية أكثر مما يعود إلى درجة تطوره، وقد كان فيما مضى أكثر تقدماً، ويحتاج إلى بنىً إدارية أكثر تعقيداً.

بيد أنه ينبغي، عندما نريد أن نفهم الواقع الداخلي في المملكة، أن نتذكر المادة رقم ٥ من الدستور الشهير، وأن نبدأ من القمة: الملك! والملاحظة التي تفرض نفسها مباشرة على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي والقضائي، هي حصر السلطات جميعها من حكومية أو إدارية وقضائية في شخص الملك وحده. ومهما يكن المستوى والمجال فإنه لا يمكن اتخاذ أي قرارهام إلا بعد الرجوع إلى الملك. وإن التمييز التقليدي بين السلطات، مما اعتادت عليه عقولنا الغربية ليس له هنا أي قيمة: (فالتشريعي والتنفيذي والقضائي، كلها سلطات يمارسها شخص واحد. وليس هناك أي شيء، وحتى المهام الثانوية في الإدارة يشرف عليها الملك إشرافاً مباشراً وفعلياً في غالب الأحيان. وإذا أضفنا إلى ذلك أن ملك المملكة العربية[٥٢] السعودية هو في الوقت نفسه الإمام الأكبر للوهابيين، وكبير قضاتهم، وكبير مفسري الشريعة، نخلص إلى أن المملكة السعودية-الوهابية تقدم أحد أكمل نماذج الملكية المطلقة. وحدها اليمن، المملكة الأخرى في الجزيرة العربية، يمكنها أن تنافس المملكة العربية السعودية في مجال الملكية المطلقة)[1].

إن بعض الإصلاحات البسيطة، والخجولة التي تمت قبل فترة وجيزة من وفاة الملك عبد العزيز، وبعدها، جاءت لتخفف من طبيعة نظام الملكية المطلقة. ولكي نفهم الوضع في العربية السعودية علينا أن نتمثل مبادئ نظام الملكية المطلقة.

(١) مابين القوسين غير صحيح فالمملكة العربية السعودية دستورها القرآن الكريم والسنة المطهرة، وفيها مجلس شورى يقوم بدور تشريعي فعَّال، كما أن للقضاة والعلماء مكانة لا يمكن إنكارها في تصريف شؤون البلاد حسب ما تقضيته الشريعة الإسلامية وربما يشير المؤلف إلى الإدارة المركزية في المملكة، فمن المعروف أن الملك عبدالعزيز كان على إطلاع مباشر علي كل صغيرة وكبيرة في البلاد، وكان بدوره يحيل المواضيع إلى جهات الاختصاص، ولكن من الواضح شدة التزامه بما يصدر من أحكام قضائية. (المترجم).

# [٥٣] الفصل الخامس
# العربية السعودية في القرن العشرين

إن كل التنظيمات السياسية التي يمكن تخيلها ليس لها أي قيمة في نظام السلطة غير المحدودة للملك. وأولئك الذين تخيلوا أن سلطة الملك سعود ستكون أقل من سلطة والده العظيم، أصيبوا بخيبة أمل كبيرة. ففي عام ١٩٥٨م، أي بعد ثلاثين سنة، مازال الملك في المملكة العربية السعودية يدير البلاد، والأموال والعباد بحزم وقوة[١].

ولد الملك الحالي سعود بن عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود عام ١٩٠٢م، وعُيِّن ولياً للعهد في عام ١٩٣٣م ليخلف والده على العرش بعد وفاته التي كانت في ٩ نوفمبر« تشرين الثاني» ١٩٥٣م. ويدعى سعود في بعض الأحيان تجاوزاً بابن سعود الثاني. اكتسب سعود، الابن البكر للملك الراحل[٢]، خلال العشرين سنة التي كان خلالها رسمياً الرجل الثاني في المملكة، مركزاً كانت تزداد أهميته مع الأيام، فتولى قسطاً كبيراً من مهمة إدارة الحكومة. لقد كان يتعلم مهنته المستقبلية، وكان إخوته يعتادون في الوقت نفسه على احترام سلطته عليهم. يقول فيلبي، الخبير بشؤون الجزيرة العربية، والذي كان صديقاً للملك عبد العزيز، وشاهد عيان على التاريخ السعودي: « عندما بدأت القوى الجسدية والعقلية للملك تضعف

(١) المملكة العربية السعودية، مملكة عربية إسلامية دستورها ونظام الحكم فيها الشرع الحنيف، والملك مصدر السلطات جميعها، وفي يده تصريف شؤونها على النحو الذي يريده، وقوله هو القول الفصل في كل الأمور، ولا يقيد هذه السلطة المطلقة إلا أحكام الشرع الحنيف. وقد قال تويتشل في كتابه: المملكة العربية السعودية (الترجمة العربية) ص ٢٩٧: «والملك هو القائد الأعلى لسائر القوات المسلحة. وجلالته يحيل إلى القضاء ما كان من الأمور مختصاً بالشرع، للحكم فيه على الوجه الشرعي، أما جميع الأمور المختصة بالشؤون الأخرى من إدارية وسياسية ومالية وعسكرية فتعرض على مجلس الوزراء الذي يرأسه جلالته ليفصل فيها. وتصدر القرارات في هذه الأمور بعد تصديق جلالته عليها» (المترجم).

(٢) الملك سعود ليس الابن البكر للملك عبد العزيز بل أكبر أبنائه حين وفاته، لأن الابن البكر هو الأمير تركي المعروف بـ تركي الأول. وهو الذي يتلقب به الملك عبد العزيز (المترجم).

في السنوات الأخيرة من حياته الحافلة، بدأ سعود، باسم والده، يسهم في إدارة البلد إسهاماً فاعلاً، كان يزداد يوماً بعد يوم. وأُضْفيت الصفة القانونية على الوضع القائم قبيل أسابيع من وفاة الملك عبد العزيز، عندما أُنشئ مجلس للوزراء مسؤول [٥٤]أمام الملك. وأصبح ولي العهد، القائد العام للقوات المسلحة، رئيساً لمجلس الوزراء، وأخوه الأمير فيصل وزيراً للخارجية، ونائب رئيس مجلس الوزراء» [١] .

لقد تم عملياً خلال حكم الملك عبد العزيز. إحداث عدد من الوزارات، ولكن بطريقة تجريبية، ولم يكن الذين تولوا هذه الوزارات في واقع الأمر إلا مجرد موظفين كبار، مكلفين بتنفيذ قرارات الملك، وتقديم مقترحاتهم إليه. ولم يكن هناك، ماعدا شخصية الملك، أي جهاز مركزي لتنسيق سياسة المملكة. لقد أنشأ الملك عبد العزيز قبل وفاته بشهر واحد بالضبط، في ٩ أكتوبر« تشرين الأول» ١٩٥٣م، مجلس الوزراء، وأسند رئاسته للأمير سعود، خليفته، وكان الأمير فيصل يتولى نيابة الرئيس.

وبعد بضعة أسابيع على رحيل الملك عبد العزيز، أصبح سعود رئيس الوزراء، وولي العهد السلطة العليا في المملكة. وبدا أن المؤسسة الجديدة(مجلس الوزراء) فقدت كل مسوغ لوجودها.

وقد عدَّ المتحدثون المأذون لهم حينئذٍ، وفيلبي على وجه الخصوص-في مقالته الهامة المذكورة سابقاً-أن اعتلاء ملك جديد العرش هو عودة إلى السلطة الملكية المطلقة الفردية. ولكن، وعلى الرغم من ذلك، ومنذ الأشهر الأولى لولاية الملك الجديد، أُنشئت وزارات جديدة: هي المعارف، والزراعة، في ٢٤ ديسمبر«كانون الأول» ١٩٥٣م، والتجارة في ١٧ مارس«آذار» ١٩٥٤م؛ وأُعيد تنظيم بعض الوزارات الأخرى، مثل وزارة المالية والاقتصاد. وأصبح الأمير فيصل بدوره الرجل الثاني في المملكة، بعد أن سُمِّيَ ولياً للعهد. هل يمكن القول إن النظام أصبح مرناً بهذه الإجراءات ؟

---

(١) فيلبي، الأصل (ص٥٤).

لقد حـاول الملك، بسبب تعدد المهام الحكـومية وتعقـدها، أن يلقي على عاتق المقـربين إليه مـهمـة اتخاذ بعض القـرارات البسـيطة. وتم توسيع مـجلس الحـجاز الاستـشاري ليـستوعـب ممثلين عن كل المناطق. ومع ذلك ظل الملك المرجع الوحـيد للسلطات كلهـا، لا يتخلى عنهـا إلا عندما يجـد ذلك مناسباً؛ وإن من يضع [٥٥] الملك ثقته بهم مسؤولون عن تصرفاتهم أمام الملك، وأمامه وحده.

## مجلس الوزراء

ينبغي، فـي هذا السياق، التـزام الحذر من الحكم على مـا يجري في العـربية السعودية انطلاقاً من تجربتنا الغربية وحدها. إن الكلمات نفسها ، لا تطلق هناك على الأشيـاء التي اعتدنا عليـها في الغرب. إذا تذكـرنا ذلك ونحن نتحـدث عن مجلس الوزراء السعودي فإن بإمكاننا أن نعد إنشاءه خطوة كبرى على طريق التقدم.

انعقـدت الجلسة الأولى لمجلس الوزراء في٨ مارس«آذار» ١٩٥٤م. وبعـد عدة أيام ٢٦ مـــارس نشـرت صحفيـــة **أم القـرى**، الصحـيفـة شبـه الرسمـية[١]، نص مـرسومين ملكيين، ينظمان مجلس الوزراء والأجهزة المرتبطة به. وبعد خمسة أشهر، ١٧ أغسطس «آب» ١٩٥٤م، صدر قرار أكثر أهمية دعّم التغيير الذي حدث في جهاز البلاد الحكومي: لقد صدر مرسوم ملكي بتعـيين الأمير فيصل، ولي العهد-الذي كان من قبلُ وزيراً للخـارجية، ونائباً لرئيس مجلس الوزراء-رئـيساً لمجلس الوزراء. وبدا من هذا القرار التاريخي أن الملك سعـود ينوي المحافظة على مجلس الوزراء، حتى لو كان المجلس وأعضـاؤه بدون سلطات حقيقيـة، وينبغي عليهم الحصول على مـوافقة الملك في كل ما ينون القيام به.

إن المراسـيم الملـكيـة التي صـدرت بتـــاريخ ١٢ رجب ١٣٧٣هـ(١٧ مـارس ١٩٥٤م)، والتي نشرت في ٢٦ مارس في صحيفة **أم القرى**، هي بدون شك قوانين

(١) الصحيح أنها الصحيفة الرسمية حتى الآن ( المنيف).

دستورية. وإن الإجراءات التي اتخذت بموجبها هي الأهم لحسن سير الدولة منذ «الدستور» الذي صدر عام ١٩٢٦م. ينظم المرسوم الأول مجلس الوزراء، ويحدد آلية عمله؛ ويحدد المرسوم الثاني مهام الأجهزة المرتبطة به.

يقضي المرسوم الأول أن مجلس الوزراء يتألف من وزراء عاملين، يعينون بمرسوم ملكي، ومن مستشارين للعرش هم حكماً أعضاء في مجلس الوزراء، ومن[٥٦] أي شخص أخر يرى الملك أنه يثري المناقشات. إذاً، إن مجلس الوزراء نوع من المجالس الحكومية، يعينه الملك بتمامه، دون معايير محددة سلفاً. والوزراء مسؤولون أمام الملك، وأمام مجلس الوزراء؛ واستقالتهم ينبغي أن تحظى بموافقة الملك.

يدير مجلس الوزراء نظرياً سياسة الدولة الخارجية والداخلية؛ وهو مكلف على وجه الخصوص بالموافقة على الموازنة، والمعاهدات والاتفاقيات الدولية، والعقود الخاصة بمنح امتيازات، أو قروض تزيد قيمتها على ٣٠ مليون ريال سعودي[1] وهو ناهيك عما سبق مخول بالمصادقة على إنشاء الشركات المساهمة، وإعطاء تراخيص للعمل في المملكة لشركات أجنبية، وبفض الخلافات التي تكون الدولة طرفاً فيها، إذا كانت موضوع الخلاف تزيد قيمته على ٥٠ مليون ريال، وبتعيين كبار الموظفين وعزلهم، وبإيجاد فرص عمل جديدة لم يرد ذكرها في الموازنة، وأخيراً، بالتوقيع على كل العقود التي تخص تشغيل الأجانب.

كان يمكن للصلاحيات التي عددناها أن تكون هامة لو أن المادة التالية من المرسوم لم تشترط أن قرارات مجلس الوزراء، لكي تكون نافذة، ينبغي الموافقة عليها بالإجماع، وبحضور ثلثي أعضاء مجلس الوزراء على الأقل، وأن يصادق الملك عليها. وتفصّل المراسيم التالية في كيفية عمل الأجهزة التابعة للمجلس روتينياً. إذاً، ظل الملك هو الذي يعين الوزراء، وكل شخص يراه أهلاً ليكون في المجلس، وهو

(١) سعر الصرف كان في عام ١٩٥٧م ١٠ ريال لكل جنيه إسترليني، و ٣,٧٠ لكل دولار.

السلطة الوحيدة التي تستطيع تصديق قرار ما، وجعله ممكن التطبيق[1] .

يذكر المرسوم الذي يحدد ينظم عمل مجلس الوزراء في المادة ١٩ أن للمجلس ديواناً يساعده في إدارة شؤونه، وهو مؤلف من الأجهزة التالية: أمانة عامة، وديوان محاسبة، ومكتب فني من أهل الخبرة [٥٧] ، وديوان المظالم. وهناك نص أخر يحدد مهام كل من هذه الأجهزة.

تشرف الأمانة العامة على إدارة الأجهزة، وتوقع محاضر جلسات مجلس الوزراء، وتحضر جدول أعماله، والوثائق الضرورية للنقاش، وتسهر على القيام بكل عمل ملائم.

أما ديوان المحاسبة فمهمته تدقيق حسابات الدولة كلها، والتأكد من صحة المبالغ المسجلة في الموارد والمصروفات في كل أجهزة الدولة. ويشرف على عمله رئيس يحمل لقب المفتش العام، يعينه الملك، وهو مسؤول أمامه.

ينبغي على المفتش العام أن يسهر على ألايتم تحريك أي مبلغ في صناديق الدولة دون أن يكون مسجلاً بدقة؛ وهو مكلف بأن يقدم تقريراً سنوياً حول موازنة الدولة، وهو مخول بإبداء أي اقتراح مفيد في مجال الإدارة المالية. وقد أدى إنشاء هذا الجهاز، وبعد مرور ستة أشهر من بدء عمله، إلى فتح تحقيق واسع عن الإدارة المالية في البلاد. وأظهرت نتائج التحقيق أن وزير المالية في عهد الملك عبد العزيز جمع ثروة طائلة أسطورية، وأُزيح من منصبه.

أما الخبراء التقنيون فهم مرتبطون بمجلس الوزراء ومسؤولون أمامه. وهم يبدون آراءهم في القضايا التي يحولها إليهم رئيس المجلس، أو من الوزراء المختصين، كما تذكر المادة ١٥ من المرسوم. وقد كان إنشاء هذا الجهاز من الخبراء في المجالات كلها ضرورياً بسبب عدم كفاءة الأشخاص المكلفين بإدارة المهام العليا في الدولة. أما ديوان

(١) نُشر النص الكامل للمراسيم بالإيطالية في مجلة الشرق الحديث، أغسطس-سبتمبر«آب»-أيلول ١٩٥٤م. وظهر لها تحليل رائع في دفاتر الشرق المعاصر، السنة الثانية، العدد ٣٠، الفصل الثاني ١٩٥٤م.

المظالم فهو نوع من المحكمة الإدارية. يديره رئيس يعينه الملك، وهو مسؤول أمامه. وتتلقى المحكمة كل الشكاوى التي تُقدم إليها وتسجلها، وتبدأ بإجراء التحقيقات اللازمة، وتقدم للملك تقارير مشفوعة في كل حالة باقتراحات حول الإجراءات التي يمكن اتخاذها.

ويتمتع رئيس الديوان وأعضاؤه بالسلطة اللازمة لاستدعاء الموظفين الذين لهم علاقة بهذه الشكاوى، شرط أن يسبق ذلك إعلام الوزير المسؤول عن أولئك الموظفين.[٥٨] إن غياب حس المسؤولية في الحياة العامة جعل من الضروري إحداث هذه الأجهزة في رئاسة مجلس الوزراء، وخصوصاً ديوان المحاسبة وديوان المظالم. هذه الأجهزة الضرورية مكلفة بمراقبة سلوك كبار الموظفين المهملين [. .]. ولعل هذا هو السبب الذي يصر من أجله الملك على أن يشرف شخصياً على إدارتها. ويمكن القول على العموم إن فعالية هذه الأجهزة مازالت ضعيفة.

## الـــــوزارات

إن الوزراء الذين يحضرون مجلس الوزراء يتولون الوزارات التالية: الزراعة، والتجارة، والاتصالات، والدفاع، والمعارف، والمالية والاقتصاد الوطني، والداخلية والصحة العامة، كما يحضره عدد من وزراء الدولة(سبعة في عام ١٩٥٧م)؛ منهم الشيخ يوسف ياسين، وكيل وزارة الخارجية، أما وزارات الداخلية، والاتصالات، والمعارف، والدفاع فإنها تُسند إلى أمراء من الأسرة المالكة. وأُسندت وزارة الخارجية منذ إنشائها إلى الأمير فيصل، الذي أصبح ولياً للعهد، ورئيساً لمجلس الـــوزراء عام ١٩٥٤م. ويضاف إلى تلك المهام كلها منصب نائب الملك في الحجاز. ويبدو أن سعوداً أراد أن يوظف طموح أخيه لخدمة المملكة على أحسن وجه.

وهناك بعض الأجهزة والإدارات الوزارية التي تعمل بالتوازي مع الوزارات

الرئيسية. مثال ذلك وزارة الإعلام والتوجيه الوطني، التي أُنشئت عام ١٩٥٥م، تقليداً للوزارة المماثلة في مصر.

ومع أن المراكز الهامة تسلمها أشقاء الملك أو المخلصون للأسرة المالكة إلا أن أهميتهم محدودة نسبياً، وحتى أبرزهم الأمير فيصل. ومن الواضح أن بعض الخبراء [٥٩] الذين عينهم الملك، ويحظون بثقته، يتمتعون بأهمية أكثر من سابقيهم. ولذلك نجد، كما أشار فيلبي إلى ذلك، أن المراسيم الملكية كلها، التي صدرت بعد تولي سعود سدة العرش تحمل توقيع الملك نفسه، وليس هناك إلا حالة أو اثنتين عهد بهما إلى رئيس مجلس الوزراء. وعبثاً أن نحاول البحث عن أمر حكومي لا يحمل خاتم الملك، حتى في مجال الشؤون الخارجية، وهي الوزارة التي يديرها نظرياً الأمير فيصل.

لقد حاول فيلبي انتقاد آلية النظام السعودي في بداية عهد سعود، إذ خيل للصديق القديم للملك الراحل أنه يتمتع بصلاحية انتقاد بعض عيوب النظام؛ ولكن طبيعة الحكم لا تدع مجالاً للنقد، وطُرد فيلبي في ١٧ أبريل«نيسان» ١٩٥٥م من بلده الذي تبناه، والذي يقيم فيه منذ ثمانية وثلاثين عاماً.

## أضرار الفساد

يمكن للانتقادات التي وجهها فيلبي أن تجعلنا نعي الصعوبات الفادحة التي تواجهها الحكومة السعودية. إن المملكة العربية السعودية حديثة العهد بالوحدة [. .]، ويبدو أن الثروة البترولية كانت في بداية ظهورها حملاً ثقيل الوطأة عليها. وكان الأمل معقوداً على الملك الجديد الذي اعتلى سدة العرش في نوفمبر«تشرين الثاني» ١٩٥٣م، في التجديد والتطوير، لأن كبر سن الملك عبد العزيز ومرضه في سنواته الأخيرة كان يحول دون ذلك. لقد أصبح جهاز الدولة في حالة خلل لا يمكن لأحد أن ينكرها. ويصف لنا فيلبي بالعبارات التالية الوضع حينما تسنم سعود سدة العرش:

«بدأ الملك الجديد عهده بميزة لم تتوافر لوالده الذي كان مهتماً بقضايا أخرى، وربما كان يثق ثقة زائدة بمعاونيه: ألا إنها التجربة الشخصية، والمعرفة التامة بالعيوب المتفاقمة، وبالنواقص التي استشرت في الجهاز الإداري في البلاد بسبب نقص الكفاءات، وتولي الأجانب المناصب الرسمية، دون أن يكون هناك نظام لتوظيف هؤلاء، الذين يُخْتارون من بقايا «الأنتليجنسيا» [٦٠] التي يقدمها العالم العربي للمملكة العربية السعودية، في وقت تشتد الحاجة إليهم فيها. ومما يدل على فساد هؤلاء أن عدداً كبيراً منهم لم يكن يمتلك شيئاً، وأصبحوا اليوم في عداد الأثرياء. . . ليس التجار المحليين وحدهم هم الذين سُمِح لهم بالمشاركة الفعالة في إدارة الشؤون العامة وهم موظفون، ولكن الأشخاص الذين وظِّفوا حصراً للخدمة العامة لم يجدوا أية صعوبة في تطوير مصالح تجارية لتحسين أوضاعهم الاقتصادية. ولا يمكن لمثل هؤلاء أن يكونوا فاعلين في مثل هذا النظام، ناهيك من الحديث عن الاستقامة. لقد أصبح كل عقد بيع أو شراء لحساب الدولة يخضع لتفحص دقيق، ليس أبداً حسب صلاحية العرض المقدم، ولكن من وجهة النظر الخاصة للموظفين، الذين يهمهم الأمر لأنهم يمكن أن يكونوا وسطاء في هذه العمليات لقاء عمولة يأخذونها من المتعهد السعيد الذي يرسو عليه العقد».

ويتابع فيلبي كلامه ليفضح استشراء الفساد في النظام الإداري القائم كله فيقول: « قلة هم الموظفون الذين ليس لهم مصلحة في عمولة أو رشوة أو غير ذلك في هذه أو تلك من الشركات المتعددة، المختلفة الجنسيات، التي تتنافس اليوم للحصول على العقود أو العروض التي تقدمها الحكومة السعودية. . . »[١].

ويستمر فيلبي في كلامه منتقداً العصبية الأسرية في البلاد فيقول: «هناك خلل أخر خطير في النظام الإداري القائم، ناجم عن ميل طبيعي لدى كبار الموظفين لاختيار الجهاز الوظيفي التابع لهم من أبناء أسرهم وأصدقائهم؛ وهم بذلك يشكلون

(١) إذا كان هناك بعض ضعاف النفوس فإن ما يذكره فيلبي لا يمكن تعميمه، وهو أمر موجو دفي كل دول العالم. (المترجم).

مـا يمكن تسمـيـته مـحفـلاً يدين لهم بالولاء، بدل أن يكـون ولاؤه الأكبـر للملك والدولة. . . ولابد من الإشارة، كما يقول فـيلبي، إلى نقطة أخرى في الإطار نفسه، وهي ما شاع في السنوات الأخيرة من حكم الملك عبد العزيز، رحمه الله، من تعيين أفراد الأسرة الملكية [٦١] في مـراكز إدارية ليسوا مؤهلين لها، ويظلون لـصفتهم تلك في منأى عن الانتقاد. . . وقد تؤدي أخطاؤهم في تسيـير الأمور، أو قلة خبرتهم إلى تحميل العهد والنظام مغبة ذلك. . .»[1]

ويحذر فـيلبي أخيراً من اخـتلاس أموال الدولة وتبـذيرها، فيقـول: «لم تُنْشر الموازنة العامـة على الملأ في العقد الأخيـر على سبيل المثال سـوى ثلاث مرات، ولم تعط الأرقام المنشورة في كل مرة للرأي العام فكرة صادقة وجلية التي صُرفت بموجبها أموال الدولة لصالح البلاد».

ويخلص المستشار السابق للملك عبد العزيز من كل ذلك إلى القول: «لقد قيل ما قيل عن الفساد الذي يُعَدُّ المشكلة الإدارية الرئيسية التي تواجه العهد الجديد للملك سعود، وقد تفاقـمت تلك المشكلة حداً يبدو أن كثيراً من كبار الشـخصيات يجهلون مداه، ويقتضي معالجة عاجلة. . .»

لم تتـغير الأمـور في جوهرها، على الرغم مـن أنه يبدو أن الملك سـعود في تشكيلاته الإصلاحيـة التي أجراها عام ١٩٥٤م أخذ بعين الاعتبار الانتقـادات القاسية التي عبـر عنه فيلبي. لقـد كان ذلك يتطلب أن يـتخذ الملك إجـراءات أكثـر جذرية وفعاليـة مـن تلـك التي اكتفى باتخاذها. إن ما ينقص المملكة على وجـه الخصوص هي الكوادر المؤهلة التي لا تتـوافر لا في المملكـة العربية الـسعودية، ولا فـي البلاد العربية [. . .].

(١) هذه وجهة نظر خاصة، ولا تمثل واقع الحال الذي هو على غـير ما يصف فيلبي، ولا يمكن تعميم ذلك على نظام الحكم كله. (المترجم).

# المنـــاطـــق

لقـد رأينا فـيمـا سـبق أن الهـيكل الإداري الداخلي للدولة السـعـودية يراعي الخصوصيات المتعددة للدولة. لقد اعتاد الناس في واقع الأمر على المقارنة الدائمة بين الحجاز وباقي منـاطق الدولة، المسماة نجداً وملحقـاته، وإن ذلك خطأ فادح، لأن كل قسم من الأقسام التي تشكل المملكة ينعم بـلون من الاستقلال الإداري. وإن الممالك كلها التي نشـأت من توحيد مناطق مـتعددة [٦٢] بعـد فتحهـا هي على غرار ذلك. ويقدم الحجاز، الأكثر تطوراً، أصدق مثـال على هذه اللامركزية التي فرضتها الفوارق الاجتماعية والثقافية، ناهيك عن اتساع البلاد.

لقد لاحظ تويتشل، المهندس الأمريكي الذي كان وراء اكـتشاف الثروة المعدنية في المملكة العربية السعـودية « أن البلد منظم سياسياً حسب أربع مناطق أسـاسية، كانت في الماضي ممالك مستقلة وهي اليوم تشكل المـملكة العربية السعودية». ويرى هذا المراقب أن « كل منطقـة سـيـاسيـة يمكن أن تشـبـه دولة من الدول التي تشكل الولايات المـتحـدة الأمريكية»، وهي مقارنة لا تبتعد كثيراً عن الواقع. والممالك الأربع القديمة التي أصبحت اليوم ضمن المملكة العربية السعودية هي: **الحجاز، ونجد، والأحساء، وعسير.**

لقد ذكر الكتَّاب أن المـملكة مؤلفة من نيابتين للملك، وقد كان ذلك صـحيحاً أيام حكم الملك عـبد العزيز، والحق أن الحـجاز وحـده يستحق فـي واقع الأمر هذه التسمية، لأن بقية المملكة العربية السعودية مقسمة إلى مناطق.

كان الأمير فـيصل هو نائب الملك في الحجاز، وكان يديره مباشـرة من عاصمة الحجاز، المدينة المقدسة، مكة المكرمة. وكانت الإدارة تضم أجهزة للشريعة، وللشؤون الخارجية، والداخلية، والمالية، والمعارف، والقوات المسلحة. أما مجلس الشورى فقد تأسس بموجب الدسـتور الذي صـدر في عام ١٩٢٦م. وكـان في الأصل يضم نائب الملك ومستشاريه، وستة من الأعيان. وقد تم توسيعه في تعديل صدر مؤخراً.

أما المدن الكبرى ( وخصوصاً جدة، الميناء الرئيسي، والعاصمة الدبلوماسية، والمدينة المنورة، والمدن الأخرى) فإنها تضم مجلساً استشارياً. أما المناطق الزراعية فتديرها مجالس المناطق، بإشراف زعماء محليين، يساعدهم بعض الأعيان. وهناك ما مجموعه ١٩ منطقة بما في ذلك المدن الخمس الكبرى، جدة والمدينة المنورة، ومكة المكرمة، والطائف، وينبع. وتضم هذه المدن مجالس بلدية؛ وكل قرية أو قبيلة يدير شؤونها مجلس يرأسه شيخ يساعده الأعيان. والمراقبة الدينية صارمة في المجالس كلها. [٦٣] أما نجد وملحقاته فيدير شؤونه في أعلى المستويات الملك نفسه من عاصمته الرياض. دون التخلي عن اللامركزية العمودية والأفقية. فنجد نجداً، والقصيم، وبلاد شمَّر، التي تشكل قلب المملكة، لها إدارة مختلفة عن الأحساء المندفعة في طريق التصنيع، وعن عسير، أرض المزارعين الجبليين.

تتمتع الأحساء(التي تعني الآبار)[1]، والتي أصبحت منطقة بترولية بالغة الأهمية باستقلال ذاتي واسع في ظل إدارة حاكم عام يختاره الملك، وهو مسؤول أمامه وحده. أما عسير الأكثر بعداً فإنها في الحالة نفسها؛ وتنقسم إلى ناحيتين. إن الأحساء وعسير يوكلان إلى حاكم، والحجاز إلى نائب الملك، ونجد تحت سلطة الملك، وهذه كلها وحدات شبه مستقلة، ترتبط في شؤونها العامة (المالية، والدفاع، والشؤون الخارجية. . .) بالسلطة المركزية في الرياض. وإن الأقسام الأخرى كلها مثل القصيم وبلاد شمر في الشمال، ونجران في الجنوب الغربي، ترتبط كلاهما بهذه أو تلك من المناطق الأربع الكبرى. ويتمتع الحكام عادة بصلاحيات واسعة، بما في ذلك حق الحياة والموت على أتباعهم، فهم في غالب الأحيان أعلى سلطة قضائية في منطقتهم. ولا يحد من سلطاتهم عموماً إلا العلماء الذين يكون رأيهم الفصل في كل الأمور التي لها علاقة بالدين. وليس ذلك بمستغرب في بلد إسلامي، يشمل فيه الدين مجالات الحياة كلها.

(١) الصحيح أن الإحساء غير ما قال به المؤلف إذ هو: الماء الذي تنشفه الأرض من الرمل، فإذا صار إلى صلابة أمسكته فتحفر العرب عنه الرمل فتستخرجه. وللمزيد انظر :حمد الجاسر، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، المنطقة الشرقية ، ج١ ص ١٢٠ وما بعدها ( المنيف).

# البـــــدو

إن أكـثر المشكلات الداخليـة خطراً في المملكة العـربيـة السعـودية هي سكان الصحراء، رحلاً كانوا أو شبه رحَّل، والذين كان عليهم خلال بضعة أعوام أن يتخلوا عن نمط حيـاتهم الذي اعتـادوا عليه. لقد أدرك الملك عـبد العزيـز أنه لا يمكن ضبط الأمـور بحزم في مملكة نصف سكـانها من القـبائل المسـتقـلة التي تفلت من المراقبـة الصارمة التي تفـرضها السلطة المركزية. لقـد بذل الملك، كما فعلت حكومات كـثيرة أخرى، وطنية كانت أو استعمارية، جهوداً ضخمة لتوطين البدو. ونجح بفضل الحركة الدينيـة [٦٤] للإخـوان في توطين ثـلثـهم على الأقل. وخـفف بذلك من فـداحـة المشكلة؛ ولكنه لم يقض عليها جذرياً.

وإذا كان التحـول السريع الذي حصل في منطقـة الأحساء النفطية ، في البـيئة الجغرافية والاجتماعية، وطرق الحيـاة أسهم في القضاء على «حياة البادية» فإن قبائل كبيرة ومنتـشرة على مساحات واسعـة، ظلت مخلصة لطبيعة الحـياة في قلب الجزيرة العربية. وما زال لديهم صحراوات بلا نهاية ليترحلوا فيها.

ولإدارة هذه القبائل احتفظ بالنظام التـقليدي، وأسند لمصلحة شؤون البدو. إن سلطة الملك عبـد العزيز على هؤلاء الرعايا الذين لا يـستقرون في مكان واحـد تقوم على مبدأ « المؤلفة قلوبهم» -وهو مبدأ حاكـته بريطانيا في الجزيرة العربية-ويقوم على توزيع مساعـدات منتظمة لشيوخ القبـائل، ويختلف مقدار تلك المساعـدات باختلاف أهمية الـقبيلة، وعدد الجمـال والبنادق التي تمتلكها، والتي يمكن لها عـند الحاجة أن تستنفرها.

ولكن أكثـر العناصر أهمـية في السيطرة على أقـوى القبائل البـدوية يكمن في الزيجات(السـياسية) المتـعددة التي عقدها الملك الـراحل له ولأبنائه. لقد تزوج الملك

عبد العزيز بحنكته وبعد نظره في أزمنة متتالية بأميرات من أهم القبائل. . .أو أكثرها إزعاجاً، وقد حاكاه في ذلك أول أبنائه. حتى إنه يمكننا القول اليوم: إن العائلة المالكة تمثل شبكة متراصة من الارتباطات بين أسرة آل سعود الحاكمة، والأسر الأخرى الكبيرة، أو القبائل البدوية. وبذلك يكون للجميع، بمن فيهم الخصوم القدامى مثل آل رشيد زعماء شمر على وجه الخصوص، مصلحة مشتركة مع الأسرة الحاكمة. وغني عن القول إن مثل هذا النظام يؤمن إخلاص البدو التام للنظام- إن لم يكن للأسرة الحاكمة- لأن لكل قبيلة أحفاداً بين أبناء الملك وإخوته وأبناء إخوته. وبين هؤلاء البدو الذين يشكلون الأساس الصلب للمملكة، يحتل الإخوان مكانة مميزة.

## الإخـــوان والمعارضة

تأسست الهيئة الدينية المحاربة المسماة الإخوان [٦٥]عام ١٩١٢م، وكان هدفها تجميع البدو الذين ينتمون إلى قبائل مختلفة وتوطينهم، وعلى الرغم من أنهم ينتمون إلى قبائل مختلفة إلا أنهم مجتمعون على اعتناق الوهابية. ينصرف الإخوان الذين يقارب عددهم اليوم مئة ألف، في هجراتهم إلى الزراعة وتربية المواشي. وقد وزعت عليهم أخصب أراضي نجد، ومساعدات مالية ليتخلوا نهائياً عن حياة البداوة. وتوجد أضخم مراكزهم حول مهد الأسرة السعودية، في نجد، وفي داخل الأحساء. لقد رأينا أنهم أسهموا إسهاماً فاعلاً في إقامة المملكة العربية السعودية. واضطر الملك عبد العزيز بسبب تمسكهم الشديد إلى التخفيف من نفوذهم.

وقد حدث عكس ذلك في عام ١٩٥٥م، ثم في عام ١٩٥٦م. ففي إثر الاضطرابات والإضرابات الخطيرة التي حدثت في الأحساء، والمنشورات التي عثر عليها في الحجاز والاعتقالات، قام الملك بمنح بعض السلطات لبعض أفراد ممن عاشوا في هجرات الإخوان. فقد سمح لهم حسب ما يرويه فانسان مونتيي على سبيل المثال «. . .بتسيير دورياتهم التي أعطيت من جديد صلاحية معاقبة أولئك الذين لا

يتقيدون بالأوامر الدينيـة عقوبة مبدئية» [1] . لقد انتهت إلى مسـامعي أصداء أخرى من مصادر مـختلفة عن السلطات المفرطة الممنوحة للإخـوان؛ ولكنها سلطات تفرض على وجه الخصـوص على رعايا، يعيشون على الدوام، وحـياتهم وما يملكون، تحت رحمة حاكم أو أمير، بل أي مندوب من مندوبي السلطة الملكية.

إن بعث ظاهرة الإخـوان من جديد خطـوة بالغة الخطورة لأن هؤلاء المحـاربين الوهابيين المتشددين كانوا على الدوام يعارضون معارضة شديدة إدخال التقنيات الغربية إلى المملكة. وهم يرون التقدم مـفسدة. إذاً، فالملك مدعو إلى إقـامة توازن دقيق بين مطالب رعاياه المتشددين المخلصين، وبين آمال أولئك الذين يناصرون التقدم، ولكنهم مستعدون عند أول فرصة للتخلص من الملكيـة المطلقة. إن جماعة الإخوان أداة مفيدة وخطرة في الوقت نفسه، ولا يستطيع النظام استخدامها إلا إذا قدم مقابل ذلك بعض التضـحيات. لقد ورد في نشـرة مختـصة، حسنة التـوثيق عموماً، صـدرت في عام ١٩٥٧م مقالة هامة عنوانها «الإخوان ضد الجيش». ومما جاء في تلك المقالة على وجه الخصوص [٦٦]قولها: إن العاهل السعودي يتحفظ كثيراً على إقامة جيش نظامي كبير ومتطور، ويـفضل أن يصرف أمـواله، ويوجه جـهوده وعنايتـه للاهتمـام بالإخوان. ويذكر كاتب المقالة أن «الإخوان مازالوا هم الأداة الحقيقية والأساسية الكامنة وراء قوة النظام واستـقراره، وذلك بفضل طبيـعتها الديـنية المتمسكة، وولائهـا المطلق للأسرة المالكة. ويُقدر المراقبـون أن الأخوان قادرين عملياً خلال بضع ساعـات على استنفار مـئة ألف بندقـية على الأقل، ولكن الـواقع أنها قـادرة على استنفـار ضعف العـدد المذكـور. ويخلص المقال إلى القـول: إن «الضبـاط الفتـيان» في الجـيش النظامي لا يملكون إلا الجلوس والانتظار»[2].

(١) فانسان مونتيي: العرب، سلسلة ماذا أعرف ؟ المطبوعات الجامعية الفرنسية، باريس، ١٩٥٧م.

(٢) نشـرة أسـبـوعـية تصـدر عـــن مـــركـز المعلومـــات عـــن الشـرق الأوسط، باريس، رقم ١٠٢، ١٤ فبراير«شباط» ١٩٥٧م.

والحال أن المجتمع السعودي يشهد تراخياً خلقياً كبيراً، وانخفاضاً في الأخلاقيات العامة، وهذا أمر معروف أشار إليه فيلبي على وجه الخصوص. إن سلطات الزجر المفرطة الممنوحة للإخوان يمكن أن تصبح خطيرة، حتى على أفراد الأسرة المالكة أنفسهم، وعلى أعضاء الحكومة، وبالتالي على النظام. إن ما نراه من حفلات يقوم بها بعض أفراد الأسرة الحاكمة، ويدعون إليها أصدقاءهم بعيد كل البعد عن الفهم الصارم لمبادئ الإسلام كما دعا إليها الإمام محمد بن عبد الوهاب[1].

إن الثروة، والتقدم المادي الذي نتج عنها، يهددان في الصميم المملكة العربية السعودية. وقد لاحظ الجنرال بريمون منذ عشرين سنة: «أن كل ذلك مرتبط بقدرة الزعيم الحاكم على إدارة البلاد، وليس بالعادات والتقاليد الموروثة وحدهما»[2].

والحق أن العادات والتقاليد تتعارض مع الوحدة. لقد لقي الملك عبد العزيز وجه ربه منذ أكثر من أربع سنوات ، ولكن خليفته كان سر أبيه. لقد توِّج الملك الجديد دون أي حادث ولو صغيراً، والاضطرابات التي حصلت فيما بعد تمت السيطرة عليها، وطُرد رؤوس الفتنة من البلاد، وضُيِّق الخناق على القوى الهدامة. ولكن هل يمكن لذلك أن يستمر؟[3]

إن التخمين في مثل هذه الأحوال دفع بالصدر، ولكننا نشير إلى وجود معارضة داخلية، وصلت إلينا أخبار أعضائها من جهات مختلفة. ويؤكد الطرد الذي يتعرض له من حين إلى آخر بعض من كانوا في السابق مواطنين فلسطينيين [٦٧] على وجه الخصوص. لقد تلا إضراب عمال البترول في عام ١٩٥٥م سلسلة من الاعتقالات والإبعاد خارج البلاد. وبعد وقت قصير من ذلك تأسست في دمشق «الجمعية السعودية للإصلاح الوطني»، ونشرت في ٦ يوليو«تموز» ١٩٥٥م بيانها التأسيسي في

(١) ما أشار إليه فيلبي وتبناه المؤلف لم يكن إلا حالات شاذة، وعابرة تصدى لها أولو الأمر، وعالجوها بما تقتضيه الظروف من حزم وحكمة، ولا يمكن تعميم ذلك على المجتمع السعودي كله. (المترجم).

(٢) انظر اليمن والسعودية، م. س،(ص٩٥).

(٣) لقد استمر ولاء الشعب السعودي لملوكه من أبناء الملك عبدالعزيز رحمه الله. أما من يشير إليهم المؤلف في الفقرة التالية فهم الزبد الذي يذهب جفاء، وتذهب معهم اتهاماتهم التي تكذبها النهضة الكبيرة والتطور الذي شهدته المملكة منذ عهد الملك سعود رحمه الله، ثم أخيه الفيصل، ثم أخيه خالد، رحمهم الله، وحتى عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد حفظه الله. (المترجم).

إحدى الصحف السورية. وتضمن البيان اتهاماً للملك سعود على وجه الخصوص «بخنق الحريات، وتبذير أموال الدولة، والحرص المقصود على إبقاء الشعب يعاني الفقر والجوع والجهل»[١]... وطالبت الجمعية بسن دستور للبلاد، وإطلاق المعتقلين السياسيين[٢].

## التقدم في محاربة الترحل

لقد تركت التقنيات الحديثة آثاراً جوهرية في هذا البلد ذي البنية الذكورية[٣]. ولا يمكننا أن نجعل البدو، الذين هم خلايا حية في جسد اجتماعي أكثر منهم أفراداً، يتجاوزون القرون دون أن نحصد نتائج ذلك. إن الغرائبية المتمثلة في التعارض بين الجمل وأنابيب النفط (باعتبارهما وسيلتا نقل تعبر الصحراء) تفتح عيوننا على واقع مأساوي: إن البدو في سبيلهم إلى خسارة طريقة حياة هي سبب وجودهم، وليس لقمة عيشهم فقط. إن التطور المتسارع هو الذي يترك آثاراً سيئة[٤].

لقد كتب روبير مونتيي بتبصر في بداية كتابه الجيد الذي خصصه للرعاة البدو فقال: «... إذا أردنا اليوم أن نتأمل شعب الرُّحل في الصحراء، فعلينا أن نسرع، لأنهم مهددون، إن لم يكن بالانقراض، فعلى الأقل بالضعف الشديد، بسبب الحضارة الصناعية التي تقتحم عزلتهم». [٦٨] فالسيارة، والطائرة، وحفارات البترول، وأنابيبه، تغير ملامح الصحراء في كل يوم، وتحمل إليها حياة غريبة عنها[٥]. وأود أن أقتبس مما يقوله ذلك البدوي بالتبني، فيلبي، الذي يكتب، وهو لا يستطيع إخفاء الحنين الذي يشعر به عند عودته من رحلته الأخيرة: « لقد كان من حسن طالعنا أننا استطعنا أن ندرس عن كثب، وفي أحسن الظروف، شعباً بدوياً ومتحضراً

(١) هذا كلام لا يصح على وجه من الوجوه، ودليل عدم صحته ولاء الشعب السعودي لملوكه، ولو كان ما يذكره كلام الموتورين صحيحاً لاهتز ذلك الولاء. (المترجم).

(٢) نُشر المرسوم الملكي الذي يحظر الإضرابات بنصه الكامل في صحيفة الأهرام المصرية في ١٨/٧/١٩٥٦م، وتُرجم إلى الفرنسية في مجلة مقالات ووثائق، رقم ٤٠٧، ١٥/٩/١٩٥٦م.

(٣) البنية الأبوية التي تقوم على الذكور من الأبناء وتضع الإناث جانباً. (المترجم).

(٤) لقد اتسعت في تفصيل هذا الموضوع في رسالتي المذكورة سابقاً، بالاعتماد على ملاحظات سوسيولوجية (انظر السياسة البريطانية في العربية الجنوبية...).

(٥) انظر حضارة الصحراء، م.س، (ص ١٢).

في الوقت نفسه، شعباً هو في طريقه للانقراض في غمرة التحولات الحتمية لحياته الذكورية التي تتحول إلى ظلال لما نسميه الحضارة الحديثة. لقد اجتزنا أكثر من ٥ آلاف كم في الصحراء، دون أن نستخدم في تنقلاتنا وسيلة نقل أقدم من السيارة والطائرة . . »[١]

إننا اليوم نجد بعض المدافعين بحماسة وسذاجة، المعجبين بنتائج الالتقاء بين الحضارة التقنية الغربية وبين البدو المسلمين في قلب الجزيرة العربية. وهؤلاء هم على وجه الخصوص بعض الكتّاب الأمريكيين الذين لا تخفى على أحد العلاقات الوثيقة التي تربطهم بشركات البترول. إن المراقبين الجادين، والمؤهلين فضلوا التنبيه على ما يحدق بالتركيب الاجتماعي والاقتصادي للبدو من خطر داهم أمام التحولات العنيفة والقسرية، و على هذا الانتهاك الفاضح لخصوصيات حياتهم. ولا أقصد بقولي هذا البكاء برومانسية على اختفاء «البداوة» التي هي أسطورية أكثر منها واقعية. إن أسياد الصحراء القدامى، وإنْ أصبحت حالتهم تثير الشفقة، فهم، على أية حال، لم يهزموا بعد. إلا أنه لا بد من الإشارة إلى أن التغيرات السريعة جداً، التي لا يمكن تجنبها، والتي تقتلع من السكان جذور عقليتهم الاجتماعية، المؤمنة بالقدر، تصنع بإيقاع متسارع صناع الثورة القادمة. إن ما يقلق الخواطر لم يعد تطور البدو، وتحولهم من رحّل إلى حضر؛ وإنما كون هذا التحول مصطنعاً، وقائماً على ثروة قد تكون مؤقتة، في حين أن الحاجات التي سيحصلون عليها لن يمكنهم التخلي عنها.

تلك هي عقدة المشكلة: تطور اجتماعي سريع، دون أسس اقتصادية صلبة[٢].

---

(١) فيلبي: تقديمه لكتاب رحلة إلى قلب الجزيرة العربية، أدريان ميزونوف، باريس، ١٩٥٦م. وانظر الترجمة العربية، ص ١١( المترجم).

(٢) هذه قراءة سطحية تكذبها النهضة الحضارية الحالية في المملكة مما يعني أن الأسس التي وضعت لها كانت أسساً صلبة. (المترجم).

# [٦٩] الفصل السادس
# الثـورة الاقتصاديـــة في الصحـراء

إن خطر اخـتلال التوازن بـين الوضعين الاجـتماعي والاقـتصـادي في التطور السعودي يهدد ببلوغ أقصى درجاته عندما يتمكن التقدم التقني بكل أشكاله، ووسائل النقل الآلية من أن ينتزع نهائياً من رجال القوافل البدو وسـيلة عيشهم الأساسية. وقد بدأ ذلك منذ زمن، إذ لم يعـد الجمل يُستخـدم لقطع المسافـات الطويلة. إن انقراض هذا العنصر الأسـاسي من عناصر البداوة الخـالصة، الذي كان منذ عـصور لا يعيـها البشر« سفينة الصـحراء»، سيسبب انهيار المجتمع البـدوي بأكمله، وحضارته الأصيلة انهياراً لا قيامة بعده. هـل يستطيع البدو الذين حُكم عليهم بالعطالة، أو بالبحث عن مورد عيش جـديد، وأسباب عيش جديدة، أن « يمتهنوا» الزراعـة والصناعة المحلية ؟ إن الطبيعة الصحراوية المسيطرة تحول دون تطور زراعي يكفي حاجة السكان، حتى لو كانوا قليلي العدد؛ وفيما عدا البترول الغزير، يمكن القول إن المملكة العربية السعودية محرومة من الثروات المعدنية الصناعية، خلا بعض الاستثناءات الطفيفة.

إن مسألة إعادة تأهيل سكان الصحراء القدامى، الذين أفقرهم النظام الاقتصادي الجديد، تزداد، في مـثل هذه الظروف، صعوبة مع الأيام. إن ثروة البـلاد الجديدة، والتقنية الحديثة ينبغي أن يوجدا أعـمالاً بديلة، تتناسب مع طبائع الجماعة التي ينبغي إعادة تأهيلهـا. ولكن التبذير والجهل المـسيطر يحرمان المشـروعات المنتجة من مـبالغ طائلة قد تساعـد على حل المشكلة، والمسألة ليست اقتصادية فـقط. هناك جبلَّة ينبغي تغـيـيـرها، إنهـا جبلَّة البـداوة الخـالصة التي تفـضل، [٧٠]شـأنها شـأن الذئب في الحكايات، أن تحتـفظ بحريتها جائعـة، ولا تحتمل القيـد. إن البدوي على الرغم من فقره مطبـوع بطابع النبل، وتراه مشفقـاً على الحضر المساكين، إنها جـبلة تدفعنا إلى احتـرامها، وتترافق بقـيم اجتماعـية وأخلاقيـة أصيلة ضـــرورية للعيش في السـياق الاجتماعي- الجغرافي المعروف.

لا شك أن كل العصور شهدت تحول البدو إلى حضر مستقرين. وأن قبائل كبيرة من الجمَّالة مرت، عبر مراحل متتالية، من البداوة الضيقة(رعي الغنم)، إلى الانتجاع، والاستقرار؛ ولكنهم من وقت إلى أخر، تجتاحهم رغبة جامحة تجذبهم إلى الصحراء قبل أن يستقروا نهائياً. ويحتاج ذلك عموماً إلى زمن طويل.

شهدنا في شمال إفريقيا، الذي تحتله فرنسا، في الصحراء الكبرى، عبوراً سريعاً من البداوة الخالصة إلى الحضرية الكاملة. ولكن إيقاع التحول الحالي الذي تشهده الجزيرة العربية، أكثر سرعة، ولا يمكن مقارنته بشيء، ويشمل هذا التحول في وقت واحد عدداً كبيراً من الأشخاص والمنطقة بأسرها.

إن البترول هو المحرك الأول لهذه الثورة الاقتصادية. لقد دخل الخزينة السعودية من إنتاج المعدن الثمين ١٠٠ مليار فرنك فرنسي في عام ١٩٥٦م. ورقم الاحتياطي المعروف هو الأعلى في العالم، مع أن ثلاثة أرباع البلاد لم يجرِ سبرها بعد. ولكن المملكة، على الرغم من تأخرها، لا تعيش من بيع البترول فقط. بل هناك بعض السلع الاستهلاكية البسيط، تنتجها الزراعة التي ما تزال بدائية، على الرغم من بعض التجارب المغرية. وتظل تربية المواشي هي العمل الأول للبدو، وتشكل تربية بعض أنواع المواشي عملاً أساسياً من أعمال الاقتصاد الزراعي الحضري.

وتشهد، منذ عدة السنوات، الأشغال العامة، والبناء، وكل أعمال النقل تطوراً بالغ الأهمية، يعزى في جانب كبير منه إلى الصناعة البترولية في الأحساء، وإلى الحج السنوي إلى الحجاز. إن ما يعيق تطور [٧١] البنى التحتية هو قلة إيراداتها في هذا المساحات الصحراوية الشاسعة.

أما التجارة الخارجية فهي ناشطة. فالمملكة العربية السعودية تصدر بترولها، وتستورد كل السلع المصنعة، وقسماً كبيراً من المواد الغذائية. وقد يعتقد البعض أن العائدات البترولية تجعل الأوضاع المالية السعودية في حالة رفاهية مزدهرة.

ولكن العكس هو الصحيح، فهي دوماً على حافة الإفلاس. ولكن الاحتياطي الثمين من المعدن النادر في جوف الأرض يتيح لها لحسن الحظ، أن تجد دائنين متفهمين في الشركات البترولية المستثمرة، أو الحكومة الأمريكية. إن كل ما له علاقة بالحياة الاقتصادية السعودية يقودنا دوماً إلى البترول[1]. ولما كانت المكانة للمكين فإننا نبدأ به.

## قصة التنقيب عن البترول

نعلم أن اكتشاف آبار البترول الفارسية الضخمة في مسجد سليمان، عام ١٩٠٨م، لفت انتباه المنقبين عن البترول ومغامريه إلى منطقة الخليج العربي. فأوكلت شركة بريطانية تأسست في لندن عام ١٩٢٠م، هي شركة إيسترن أند جنرال ساندیکیت Eastern and General Syndicate إلى وكيلها النقيب النيوزيلندي فرانك هولمز مهمة الحصول على امتيازات بترولية بغية بيعها فيما بعد إلى الشركات التي يهمها الأمر.

نجح النقيب هولمز بادئ ذي بدء في الحصول على ترخيص بالتنقيب على الجانب الشرقي للخليج، وفي جزيرة البحرين الكبرى، ثم تخلى عن هذا الترخيص دون أي ربح إلى شركتي شل أويل Shell Oil البترولية، وشركة أنغلو- بيرسان أويل Anglo-Persian Oil Company .

أما الشركة الأمريكية الضخمة غولف أويل كوربوريشين(مجموعة شركات ميلون) ( Gulf Oil Corporation (groupe Mellon فإنها ركزت اهتمامها على البحرين، ثم باعت امتيازها لشركة ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا( مجموعة شركات روكفلر) Standard Oil of California (groupe Rockefeller) في عام ١٩٣٠م. وقد أسست الشركة الأخيرة هذه في كندا فرعاً لها ذا جنسية بريطانية- لكي يتناسب وضعه

(١) لم يربط المؤلف بين الإمكانيات الهائلة التي كانت تحتاجها المملكة في عهد التأسيس لإقامة البنية التحتية المتينة التي تقوم عليها النهضة الحالية، وما احتاجه ذلك من أموال كان مصدرها البترول، ولكن المملكة اليوم بدأت ومنذ زمن تسعى إلى تنويع مصادر الدخل. (المترجم).

مع الحقوق الحصرية التي منحها أمراء الخليج العربي ومشايخه لبريطانيا بموجب معاهدات ثنائية.

وفي عام ١٩٣٢م، اكتشفت شركة البحرين بتروليوم La Bahrain Petroleum Company- BAPCO طبقة كلسية مشبعة بالبترول، قلبت الأفكار رأساً على عقب بشأن [٧٢] الإمكانات البترولية في الجانب الغربي من الخليج. وفي عام ١٩٣٤م، باعت شركة ستندرد أويل أوف كاليفورنيا، ٥٠٪ من شركة بترول البحرين لشركة تكساس أويل Texas Oil Company، وشكلت بذلك مجموعة كالتيكس Caltex.

وفي القارة العربية المجاورة، كان الجيولوجي الأمريكي تويتشل يسبر منذ عام ١٩٣٢م الموارد المعدنية، والمخزون المائي في باطن أرض المملكة العربية السعودية. لقد أصبح الملياردير الأمريكي تشارلز كرين Charles Crane ، الذي كان يحب العرب، صديقاً لابن سعود، وعرض عليه خدمات تويتشل الذي كان قبل ذلك يعمل في اليمن. وبينما كانت التنقيب على قدم وساق في جزيرة البحرين، كان المهندس الأمريكي يستكشف الأحساء قبالة الجزيرة الكبرى، لاعتقاده أن البنية الجيولوجية متشابهة هنا وهناك. وتقرر بناء على توصياته انتظار نتائج التنقيب الذي تقوم به شركة بترول البحرين قبل البدء بعمليات تنقيب باهظة التكاليف في الأحساء[١].

## منح الامتيازات

لقد بدأت، بعد اكتشاف البترول في البحرين، حمى المنافسات بين الشركات البريطانية والأمريكية للحصول على امتيازات التنقيب في الأحساء السعودية. وكانت

(١) ريشارد سانجر : Richard SANGER الجزيرة العربية، مطبوعات جامعة كورنيل Cornell University Press ، نيويورك، ١٩٥٤م.- بنيامين شودران : Benjamin SHWADRAN الشرق الأوسط، البترول والقوى العظمى، م. س.- س. هـ. لونغريك : S. H. LONGRICC البترول في الشرق الأوسط، م. س.

ترخيص النقيب هولمز القديم قد سقط بالتقادم. وظفرت بالامتيازات الجديدة شركة ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا، بفضل عرضها السخي. وأُنشئ فرع جديد لها باسم كاليفورنيا عرابيان ستاندرد أويل California Arabian Standard Oil Company- CASOC .

أما الامتياز الأول الذي سرى مفعوله منذ ١٤ يوليو«تموز» ١٩٣٣م، فقد مُنح لمدة ٧٠ عاماً، ويغطي مساحة ٢٨١ ألف ميل مربع( ٧٢٨ ألف كم مربع). ويذكر ريشارد سانجر أنه «كان على شكل فناء نصف دائري واسع، يشمل الساحل الشرقي للمملكة العربية السعودية، بما في ذلك الربع الخالي، في الجنوب، ويتابع نحو الغرب حتى حدود اليمن». وفي عام ١٩٣٩م، زيدت المساحة المشمولة بالامتياز لتصل إلى ٤٤٠ ألف ميل مربع( ١,١٤٠,٠٠٠ كم مربع، وهي ضعف مساحة [٧٣] فرنسا).

ويشمل هذا الامتياز اللاحق، الذي مُنح في ٢١ يوليو ١٩٣٩م، الحقوق السعودية في المنطقة المحايدة جنوب الكويت، ومُنحت لستين عاماً. ومُنِحت الشركة نفسها حق الأفضلية في قسم كبير من نجد.

وكما هي الحال في شركة بترول البحرين، فإن شركة ستاندرد أوف كاليفورنيا أسهمت بنسبة قدرها ٥٠٪ في تكساس أويل بدءاً من عام ١٩٣٦م.

وفي مستهل عام ١٩٤٤م، أُطلق على الشركة الجديدة التابعة لمجموعة كالتيكس اسم أرابيا أمريكان أويل كومباني- ARAMCO، وأصبت تعرف عالمياً بهذا الاسم.

وفي عام ١٩٤٧م بيعت حصة قدرها ٤٠٪ من حصص أرامكو، فحصلت شركة ستاندرد أويل أوف نيو جرسي Standard Oil Company of New Jersy على(٣٠٪)، وشركة ساكوني فاكوم أويل Socony Vacuum Oil Company على (١٠٪)[١] .

(١) لعله من المفيد معرفة أن هاتين الشركتين تشكلان مجتمعتين مايسمى: نير إيست ديفلوبمانت كوربوريشين Ner East Devlopment Corporation، التي تمتلك ٢٣,٧٥٪ من حصص العراق بتروليوم كومباني Iraq Petroleum Company .

إذاً تتوزع حصص شركة أربيان أميركان أويل، وحصص شركة التابلين؛ ترانس- أرابين بيب لاين Trans-Arabian Pip-Lin Company -TAP-Lin، كالتالي[1]:

ستاندرد أويل كومباني أوف كاليفورنيا..... ٣٠٪

تكساس أويل كومباني..... ٣٠٪

ستاندرد أويل كومباني أوف نيو جرسي..... ٣٠٪

سوكوني فاكوم(موبيل) أويل كومباني..... ١٠٪

في سبتمبر«أيلول» ١٩٤٥م، أكد الرئيس ترومان Truman في تصريح له حق الدول في ملكية الدولة ما سمي **بالهضبة القارية**. وعلى أن البنية الجيولوجية للخليج العربي لا تسمح بالحديث عن هضبة في قعر البحر، فإن الحكومة السعودية أعلنت في عام ١٩٤٩م سيادتها على الحوض البحري في عرض ساحل الأحساء. وامتد نتيجة ذلك امتياز أرامكو إلى منطقة خيالية اسمها الهضبة القارية، التي ليس لها حدود واضحة المعالم.

لقد تخلت أرامكو في عام ١٩٤٨م عن امتيازها الخاص بالحقوق السعودية في المنطقة المحايدة بين الكويت والمملكة العربية السعودية. وقد بدأت شركة باسفيك ويسترن أويل مفاوضات مع الملك عبد العزيز حول الحقوق المذكورة، وفي ٢٠ فبراير«شباط» [٧٤] ١٩٤٩م وقع عبد الله السليمان وبرناباس هادفيلد Barnabas B. Hadfield اتفاق امتياز لمدة ستين عاماً. وفي عام ١٩٥٦م تحولت شركة باسفيك ويسترن أويل إلى شركة جيتي أويل Getty Oil Company باسم مالكها م. جي. بول جيتي . M. J. Paul Getty وكانت شركة جيتي أويل

(١) تمتلك كل واحدة من الشركات الأربع التي تشكل أرامكو ٧٪ من حصص اتحاد الشركات Consortium international العاملة في إيران.

تعمل بالتعاون مع الشركة التي تملك امتياز الكويت، أمريكان أنديباندانت أويل - American Independent Oil Company-AMINOIL، على أن تحتفظ كل من الشركتين باستقلالها.

## على طريق اكتشاف الذهب الأسود

اعتاد الناس اليوم على اسم أرامكو؛ إنه يشير إلى واحدة من أكبر شركات العالم. ومع ذلك فإن حفنة المستكشفين الذين حطوا رحالهم في الأحساء في سبتمبر«أيلول» ١٩٣٣م، لم يكن يخطر ببالهم أبداً أن الشركة ستبيع ٤٠٪ من حصصها بمبلغ ٥٠٠ مليون دولار عام ١٩٤٧م. وبعد عشر سنوات، عام ١٩٥٧م أصبح ثمن الحصة نفسها خمسة أو ستة أضعاف؛ ويمكن اليوم أن نقدر قيمة الآبار السعودية بـ٥ مليار دولار على الأقل[١].

بدأ التنقيب في الدمام، واتسع نطاقه حول الخُبَر على الساحل، ثم في الظهران، على مسافة ٦ أو ٧ كيلومترات إلى الداخل. وكان أول عملية حفر في الظهران عام ١٩٣٥م قد أعطى دلائل مشجعة. وخلال السنوات الثلاث التالية، صُرِفت ملايين الدولارات في سبع مناطق حفر أخرى، دون العثور على مخزون بترولي صالح للاستثمار. ومع ذلك، وصلت، في مارس«آذار» ١٩٣٨م، عمليات الحفر في البئر رقم٧ في الظهران ، إلى عمق قدره ٤٥٥٠ قدماً، وعثرت على طبقة مشبعة بالبترول. إثر ذلك، تسارع التنقيب الذي كان يترنح، ودب في الحال نشاط كثيف في مرافق التنقيب، وبدأت الاستعدادات للاستثمار. وعاد آلات الحفر من جديد إلى الآبار التي هجرتها، فعُمِّقت، وحُفِرت آبار أخرى جديدة، وأُنْشِئت الخزانات، ومُدَّت الأنابيب. وفي سبتمبر«أيلول» اتجهت أول شحنة من الزيت الخام السعودي تحملها الناقلات الضخمة إلى البحرين.

(١) ليست هذه بالطبع إلا تقديرات. من يستطيع أن يحدد بدقة قيمة المخزون وحجمه ؟ وأُذَكِّر هنا بطرفة للملياردير جيتي، الذي يقول: «نصبح أغنياء عندما لا نستطيع إحصاء ما نملك».

وبعد زمن قصير، أدى التنقيب الذي شجعته النتائج الأولية إلى [٧٥] اكتشاف حقول «أبو حدرية»، على مسافة ١٥٠ كيلومتراً تقريباً إلى الشمال من الظهران، ثم حقول الدمام، وبقيق، والقطيف، والعثمانية. وتتابعت الاكتشافات وآخرها حقل الخرسانية عام ١٩٥٦م. وتؤلف آبار العثمانية، وعين دار، والشجوم حقل غوار، الذي ينافس حقل برقان(الكويت) على الرقم العالمي في الاتساع. وقد أنشأت أرامكو في الحوض البحري مركز إنتاج في السفانية. ويبشر هذا الحقل الذي بدأ استثماره في أبريل«نيسان» ١٩٥٧م أن يكون أحد أهم الحقول البترولية. وبينما كانت الشركة تنقب في قعر المياه القليلة العمق للخليج العربي، كانت فرق السبر الجيوفيزيائي تلج صحراء الربع الخالي الموحشة. وكانت التقنيات الحديثة-الطائرات، والهيلوكوبتر، والجرارات الصحراوية الضخمة، في بعض الحالات، والجزر الاصطناعية في أخرى-تساعد على توسيع مجالات التنقيب وإمكانياته. وشجعت النتائج التي حصل عليها المنقبون الشركات على توظيف الاستثمارات الضخمة الضرورية.

## الإنتاج والاحتياطي

صُدِّرت أول شحنة من البترول الخام السعودي إلى البحرين في سبتمبر«أيلول» ١٩٣٨م، وبلغ الإنتاج في السنة نفسها ٦٥ ألف طن. وتجاوز الإنتاج في السنة الأولى، بعد مد خط الأنابيب إلى رأس تنورة، والذي افتُتِح في أول مايو«أيار» ١٩٣٩م، ٥٢٠ ألف طن.

وبعد التباطؤ النسبي في سنوات الحرب العالمية الثانية. وبدءاً من عام ١٩٤٦م، قفزت أرقام الإنتاج لتصل إلى أكثر من ٤٧ مليون طن في عامي ١٩٥٥م و ١٩٥٦م. وسمح مد خط الأنابيب عبْر البلاد العربية الذي انتهى العمل فيه عام ١٩٥١م بمضاعفة الإنتاج. وأصبحت المملكة العربية السعودية تحتل المرتبة الخامسة بين الدول

المنتجة للبترول عالمياً، بعد الولايات المتحدة الأمريكية، وفنزويلا، والاتحاد السوفيتي، والكويت. ولكن الاحتياطي المعروف يضع المملكة على رأس الدول المنتجة كلها. وفي عام ١٩٥٤م، كان الاحتياطي السعودي الذي قُدر بـ ٣٠ مليار برميل، يشكل ٢٤,٨٪ من مجموع احتياطي العالم الرأسمالي. وفي عام ١٩٥٥م قُدِّر الاحتياطي السعودي بـ ٣٥ مليار برميل.

إن احتياطي الشرق الأوسط كان يمثل في عام ١٩٥٣م ٦١,٢٪ من الاحتياط العالمي؛ [٧٦]وارتفع في عام ١٩٥٧م إلى ٧٠ ثم إلى ٧٥٪، ويعد سبب هذا الارتفاع إلى الاكتشافات الجديدة في المملكة العربية السعودية، والكويت، وفي المنطقة المحايدة أيضاً.

إذاً، تتربع المملكة العربية السعودية بطمأنينة اليوم على المركز الأول بين الدول المنتجة للبترول. ومازال القسم الأكبر من أراضيها لم يُسبر بعد، وخير مثال على ذلك الأراضي الرسوبية.

## الإنتاج السنوي من عام ١٩٣٨ إلى عام ١٩٥٧م[١]
## (بمئات الأطنان)

١٩٣٨ ..... ٦٥,٦١٨

١٩٣٩ ..... ٥٢١,٢١٤

(١) المصادر: الشرق الأوسط، البترول والقوى العظمى حتى عام ١٩٥٤م (ص٣٤٣)؛ صحيفة الخدمات البترولية، المجلد ٢٥، رقم ٢، فبراير«شباط» ١٩٥٨م، وللسنوات ١٩٥٥، ١٩٥٦، ١٩٥٧ .

ملاحظة-إن الأرقام التي تذكرها صحيفة الخدمات البترولية تزيد قليلاً على تلك التي تذكرها المصادر الأخرى، التي تذكر عموماً أرقاماً صحيحة(دون كسور). ويمكن أن تنتج الفروق من التحويل بين البرميل/ في اليوم، والطن/ في السنة، والتي تختلف حسب الكثافة النوعية للخام.

| | |
|---|---|
| ١٩٤٠ | ٦٧٢,١٥٤ |
| ١٩٤١ | ٥٧٠,٠٤٦ |
| ١٩٤٢ | ٦٠٠,٣٥١ |
| ١٩٤٣ | ٦٤٥,٨٦٠ |
| ١٩٤٤ | ١,٠٣٤,٦٠٣ |
| ١٩٤٥ | ٢,٨٢٥,٩٠٠ |
| ١٩٤٦ | ٧,٨٩٩,٦٧٥ |
| ١٩٤٧ | ١١,٨١٣,٦٦٨ |
| ١٩٤٨ | ١٨,٧٥١,٢٧٠ |
| ١٩٤٩ | ٢٢,٨٢٠,٧٨٣ |
| ١٩٥٠ | ٢٦,١٩٦,٨٥٢ |
| ١٩٥١ | ٣٦,٦٠٨,٥٨٥ |
| ١٩٥٢ | ٣٩,٨٧٠,٨٠٥ |
| ١٩٥٣ | ٤٠,٨٨٧,٧٥٤ |
| ١٩٥٤ | ٤٦,١٧٤,٠٧٣ |
| ١٩٥٥ | ٤٧,٥٣٥,٠٠٠ |
| ١٩٥٦ | ٤٨,٦٢٢,٠٠٠ |
| ١٩٥٧ | ٤٩,٤٥٦,٠٠٠ |

# النقـــل والتكرير

منذ عـام ١٩٣٩م، بدأت مصـفاة صـغيـرة، تكرر ٣ آلاف برميل في اليـوم. وخلال الحـــرب العـالمية الثانيـة [٧٧]، أنشأت أرامكو عند رأس تنورة مصـفاة تكرر ٥٠ ألف برميل يوميـاً. وتضاعفت هذه القدرة عدة مـرات حتى وصلت عام ١٩٥٤م إلى ٢١٠ ألف برميل في اليوم. وقد وصلت القدرة الكلية لتكرير البترول في المملكة العربية السعودية عام ١٩٥٥م إلى ١١,١٠٠,٠٠٠ طن.

ويغذي البتـرول الخام السعودي مصـفاة سترة في جزيرة الـبحرين، ويُنقل إلى هناك عـبر الأنابيب الممـدودة تحت ميـاه الخليج. وفي عام ١٩٥٣م، قـدمت المملكة العربيـة السعودية ٦١,٥٨٥,٠٠٠ برمـيلاً من الـ٧٣ مليون برمـيل التي عولجت في مصـفاة ستـرة. ووصلت القدرة التكريريـة لهذه المصفـاة إلى ٧٦ مليون برمـيل عام ١٩٥٥م. وقطعت الحكومة السعـودية خلال أربعة أشهر من ٦ نوفمبـر«تشرين الثاني» ١٩٥٦م، إلى ١١ مارس«آذار» ١٩٥٧م، تصـدير النقط الخام إلى البـحرين، ردأ على العدوان المسلح الفرنسي-البريطاني على بور سعيد[١].

أما البترول الذي لا يكرر مـحلياً فيُصدر خاماً إما عَـبْر موانئ الخليج العربي، وإمـا عَبْـر خط أنابيب ترانس-أرابـيان بيب-لاين، الذي يـبلغ طوله الكلي ١,٠٦٨ ميـلاً(حوالي ١,٨٠٠ كم) وقطر حـجمـه بين ٣٠/ ٣١ بوصة، وقـد كان الأهم في العالم عند الانتهاء منه، في ١٠نوفمبر«تشرين الثاني» ١٩٥١م. وهو يربط مستودعات في حقل بقـيق بميناء صيدا في لبنان، مروراً بالأردن وسـورية لمسافة قصـيرة. كانت طاقة التابلين Tap-Line عام ١٩٥٤م حـوالي ٣١٠ ألف برميل يومـياً. ومنذ أن أتم سنتـــه الأولى عـام ١٩٥٢م، نقل هـذا الخط العـمـلاق إلـى السـاحل المتـــوسطي ١٤,٢٢١,٥٨٩ طناً من البـترول الخام. وبفـضل محطات الضخ الجـديدة، ارتفعت

(١) يعرف هذا بالعدوان الثلاثي على مصر، ويضاف إلى الدولتين اللتين ذكرهما المؤلف دولة إسرائيل الصهيونية( المنيف).

طاقتـه السنوية عام ١٩٥٨م إلى ٢٠ مليون طن، ويمكن أن تـصل في أخـر الأمر إلى ٢٥ مليون طن.

يمثل التوفير الذي أتاحه التابلين، محسوباً على أساس طاقته الأولية، ٧٥ مليون دولار سنوياً. ولكنه من الصـحيح أنه لم يُـتفق نهـائياً بعـدُ على كلفة إنشـائه، التي قدرت بـ١٣٥ إلى ٢٠٠ مليون دولار.

وناهيك عن خط التـابلين العمـلاق، قـامت أرامكو بإنشاء شـبكة واسعـة من البـيب- لاين من كل الأحجـام، وبأقطار دائرية متنوعـة، لتربـط الحقول الـبترولـية بالمستودعات، والمصافي، وبمحطات التـحميل،[٧٨] وبالخط الضخم ترانس-أرابيك. وتجاوز الطول العام لهذه الشبكة في عام ١٩٥٣م ٣٥٠ كيلومتراً.

## ازدهار المنطقـة المحايـدة[١]

تقع المنطقـة المحايدة على الخليج العربي بـين الأحساء والكويت، ومـساحتـها ٥,٢٠٠ كم مربع من الصحراء القاحلة، مليئـة بالسباخ الملحية، ولا تصلح للسكن. وليس فيها سوى البترول.

وقد جمـعت الشركتان صاحـبتا الامتياز فـيها، AMINOIL للكويت، وجيتي أويل (باسفيك ويسترن سابقاً) للمملكة العربية السعودية، مصالحهما، وبدأتا بالتنقيب في ديسـمـبر«كـانون الأول» ١٩٤٩م، في الوفـرة وسط المنطقـة. وفي مـارس«آذار» ١٩٥٣م أعلنت شركة جيـتي أويل عن اكتشاف بئر صالحة للاستـثمار. وصُدِّرت أول شحنة من بتـرول المنطقة المحايدة الخـام في يناير«كانون الثـاني» ١٩٥٤م. وقامت إثر ذلك شركة جـيتي أويل ببناء ميناء بترولي جديد هو مـينا-سعود Mena-Saud، على مسـافة ١٥ كيلومـتراً إلى جنوب الحدود مع الـكويت. ومنذ ذلك الاكتشـاف وأرقام الإنتاج في ارتفاع مستمر:

(١) تسمى الآن المنطقة المقسومة (المترجم).

١٩٥٤ ..... ٥١,٠٠٠ طن

١٩٥٥ ..... ١,٣٦٢,٠٠٠ طن

١٩٥٦ ..... ١,٦٠٠,٠٠٠ طن

١٩٥٧ ..... ٣,٤٨٠,٠٠٠ طن

وقد وصف لي السيد جان بول جيتي، عندما قابلته في أبريل«نيسان» ١٩٥٧م، الوضع كما يلي: تصدر شركتي حالياً عبر مينا-سعود ١,٢٠٠,٠٠٠ برميل في الشهر، وستصل هذه الكمية إلى ٢,٠٠٠,٠٠٠ في شهر سبتمبر«أيلول»(١٩٥٧)، وهذا يعني أن الكمية السنوية تزيد على ٣ ملايين طن. وهناك ٤٥ بئراً تُستثمر حالياً، و٣٤ أخرى مغلقة بانتظار الانتهاء من البيب- لاين الجديد، ومن مصفاة يُتوقع الانتهاء منهما في سبتمبر«أيلول» ١٩٥٧م. ويجري الآن مد خط أنابيب أخر قطره ١٨ بوصة إلى جانب خط البيب-لاين الموجود، والذي يبلغ قطره ١٠ بوصات و٣/ ٤ بين الوفرة ومينا-سعود. وإنشاء مصفاة تبلغ طاقتها ٥٠ ألف برميل/ يومياً تنتج المازوت، وتنظم تصريف البترول الخام المعد للتصدير. وتعمل على الغاز الطبيعي الذي يصل إليها عبر أنابيب قطرها ٨ بوصات ونصف البوصة.

وأكد لي السيد جيتي في فبراير«شباط» ١٩٥٨م أن أعمال شركته في تطور مستمر، وأضاف أن حقل الإنتاج يتسع [٧٩]ليشمل ٧ أميال طولاً على سبعة أميال عرضاً، ولكن الحدود الدقيقة لم تُحدد بعد. والشركتان المتشاركتان تمتلكان معاً جميع الآبار، ولكنهما تعملان منفصلتين، كل واحدة حسب ما يخطط لها الفريق العامل بها.

أضيف إلى معلومات مالك جيتي أويل كومباني أن الشروط التي قبلتها شركته للحصول على الامتياز في ٢٠ فبراير«شباط» ١٩٤٩م، كانت مذهلة، ولمصلحة العاهل العربي. كانت أرامكو حينئذٍ تدفع للمملكة العربية السعودية ٢٢ سنتاً تعويضاً عن كل برميل. وللتنازل عن حقوقها في المنطقة المحايدة حصلت الكويت

على ٣٣ سنتاً، وهو مبلغ عُدَّ في حينها مرتفعاً. في حين أن جيتي كومباني(الباسفيك-ويستيرن سابقاً) قبلت أن تدفع ٥٥ سنتاً على البرميل، ناهيك عن مبلغ فوري مرتفع، وخدمات أخرى كثيرة[١] . وثبت على مر الزمن أن ما فعله جان بول جيتي كان هو الصواب، لأن كل العائدات البترولية أُعيد النظر فيها، و ارتفعت فيما بعد. وفي عام ١٩٥٧م، أُعلن السيد جيتي« أغنى رجل في الولايات المتحدة الأمريكية»، إذ قدرت ثروته بين ٧٠٠ مليون و مليار دولار.

## أرامكو في الاقتصاد السعودي

تسهم أرامكو عبر تقنيتها المتطورة واستثماراتها إسهاماً مباشراً في التحول الذي تشهده المملكة العربية السعودية. وإن إسهامها غير المباشر بالغ الأهمية أيضاً.

لقد اكتشفت الشركة بنجاح مخزوناً من المياه الجوفية في عدد من المناطق؛ وأقيم عدد من المشاريع الضخمة بفضل المساعدات التقنية التي قدمتها، وفي بعض الأحيان بإشرافها التام. فأُنشئت عدد من شبكات الري، والطرقات، والأعمال الفنية، والموانئ، والسكة الحديدية التي تعبر الجزيرة العربية، التي يصل القسم الأول منها الظهران بالرياض منذ عام ١٩٥١م. أما في مجالها الخاص فقد بنت أرامكو منشآت عملاقة، ووظفت يداً عاملة محلية بلغ عددها ٢٠ إلى ٢٥ ألف شخص. والموظفون[٨٠] العرب في الشركة يبلغ عددهم ١٥ ألف. وأنشأت لإسكان الأوروبيين والأمريكيين مدناً حديثة في الظهران، و الدمام، ورأس تنورة، أو القطيف. وبدأ تأثير نمط حياتهم ينتشر في البلد كله، حتى وصل الحجاز، على الرغم من الحواجز الاجتماعية-الدينية. وقد أدى نشاط أرامكو على وجه الخصوص

(١) النص الكامل للاتفاق في: اتفاقات ومعاهدات الخاصة باستغلال البترول ونقله في الجزيرة العربية، رقم ٥٠ / ٣ / ١,٢٩٩,٢١، التوثيق الفرنسي، باريس.

-انظر أيضاً: البترول في الشرق الأوسط، م. س، ص٢١٥ .

إلى إنشاء شركات، ومؤسسات تجارية وطنية، سرعان ما تجاوز بعضها الإطار الذي كان مقتصراً على أن يكونوا وكلاء للشركات الأجنبية الضخمة. إن الشركات السعودية توسع مجال نشاطها، وأعمالها، نتيجة للثروة التي حققتها بعض الجماعات التي يتسع نطاقها يوماً بعد يوم. وإن أكثر الميادين ازدهاراً هي شركات البناء، والأعمال العامة، وتجارة الاستيراد. وإذا كانت حركة البناء هي الحكم في الازدهار فإن المملكة العربية السعودية واحدة من أكثر البلاد ازدهاراً.

تمثل العائدات البترولية ٨٠٪ من دخل الموازنة السعودية؛ وإذا أضفنا الضرائب والرسوم الجمركية المستوفاة على النشاط الاقتصادي، الذي تعد الصناعة البترولية أساسه غير المباشر فإن النسبة التي يسهم فيها البترول في موازنة الدولة تصل إلى حوالي ٩٠٪. ففي عام ١٩٥٦م دفعت أرامكو وحدها للخزينة السعودية ٢٨٠ مليون دولار، ولاشك أن التوظيف الذكي لهذه الملايين يستطيع أن يحول المملكة العربية السعودية إلى بلد مستقل اقتصادياً،ويرفع مستوى معيشة السكان. غير أن تبذير العائدات البترولية في مشروعات غير منتجة يزيد من خطورة الوضع الانتقالي الذي تعيشه البلاد بفضل هذا المعدن الثمين. وإلى جانب هذا النشاط الذي يبدو كبيراً ظاهرياً، مازال القسم الأكبر من البلاد متسمراً في مكانه كأن البترول لا يعنيه. لقد علمتنا التجربة الاستعمارية الجديدة أن هذه الأوضاع غير المتوازنة تحمل في طياتها بذور انعدام توازن، وفي ذلك خطر عظيم.

## الشؤون المالية

إن تفحص مشاريع الموازنات القليلة المنشورة يكشف الخلل الأساسي في الاقتصاد السعودي: هناك مصروفات كمالية أو غير منتجة، سببها [٨١] سياسة الدعاية أو النفوذ. فمنذ عام ١٩٣٩م دفعت أرامكو وحدها للخزينة الملكية مبالغ لا تني تتزايد مع السنين.

# العوائد المباشرة للبترول بالدولار الأمريكي

| | |
|---|---|
| ١٩٣٩ | ١٦٦,٨٩٠ |
| ١٩٤٠ | ١,٥٢٣,٦٤٩ |
| ١٩٤١ | ١,٠٧٠,٥٥٠ |
| ١٩٤٢ | ١,١٠٧,٣٠٢ |
| ١٩٤٤ | ١,٨٣٢,٠٠٠ |
| ١٩٤٥ | ٤,٨٢٠,٠٠٠ |
| ١٩٤٦ | ١٣,٥٠٠,٠٠٠ |
| ١٩٤٧ | ٢٠,٣٨٠,٠٠٠ |
| ١٩٤٨ | ٣١,٨٦٠,٠٠٠ |
| ١٩٤٩ | ٦٦,٠٠٠,٠٠٠ |
| ١٩٥٠ | ١١٢,٠٠٠,٠٠٠ |
| ١٩٥١ | ١٥٥,٠٠٠,٠٠٠ |
| ١٩٥٢ | ٢١٢,٠٠٠,٠٠٠ |
| ١٩٥٣ | ١٦٦,٠٠٠,٠٠٠ |
| ١٩٥٤ | ٢٦٠,٠٠٠,٠٠٠ |
| ١٩٥٥ | ٢٨٠,٠٠٠,٠٠٠ (١) |
| ١٩٥٦ | ٢٨٠,٠٠٠,٠٠٠ (٢) |

(١) من أجل عام ١٩٥٥ يستند التقدير إلى السنة التالية التي كان الإنتاج فيها هو نفسه. المصادر: حتى عام ١٩٥٤: الشرق الأوسط، البترول والقوى العظمى، ص٣٤٤ .

(٢) الفينانشل تايمز، ٢١ مارس«آذار» ١٩٥٧م.

ومنذ عام ١٩٥١م، وبموجب الاتفاق المعقود في ديسمبر«كانون الأول» ١٩٥٠م، أصبحت المملكة العربية السعودية، وكذلك كل البلاد العربية الأخرى المنتجة للبترول تحصل على ٥٠٪ من أرباح الاستثمار البترولي. وبعد عام ١٩٥٤م أضيف إلى ما دفعته أرامكو، ما دفعته شركة جيتي أويل. وفي مقابل ذلك ألغيت رسوم الحج الباهظة التي كانت فيما مضى تحقق لخزينة الدولة مبالغ طائلة. ولكن التصدير غير الملموس الذي يرافق الحج، والاحتكارات الحكومية للتنظيم المادي للحج، تشكل معاً موارد لا يستهان بها. كيف تُصرف موارد الدولة ؟

إن أخر موازنة منشورة اطلعنا عليها هي موازنة سنة ١٣٧٤هـ( من ٣٠ أغسطس«آب» ١٩٥٤م إلى ١٩ أغسطس ١٩٥٥م). ويتضح منها أن القوات المسلحة تحظى بـ ٣٥٪ من المصروفات، مقابل ٣,٤ ٪ للتعليم، وأقل من ٣٪ للصحة. ويبلغ العجز ١٥٪. وإذا صح أن الأهمية النسبية للأموال المخصصة للجيش والتعليم والصحة تسمح وحدها بالحكم على نظام ما، فإن النظام السعودي متأخر في هذا المجال.

في عام ١٩٥٢م، تأسست مؤسسة النقد العربي السعودي[١]، بمساعدة خبراء ماليين أمريكيين. والمؤسسة هي الجهة المخولة بإصدار النقد، وهي المصرف المركزي في البلاد. وإن لعدد من المصارف الخاصة-منها مصرف الهند الصينية، ومصرف بريطانيا والشرق الأوسط-فروعاً في جدة و الدمام. وقد أدى تهريب رؤوس الأموال الطائلة إلى الخارج في مايو«أيار» ١٩٥٥م، إلى إنشاء مؤسسة مراقبة القطع، ومنع إخراج رؤوس الأموال، وأُرغم أولئك الذين أخرجوا أموالهم على إعادتها. وقد ذكرت صحيفة لوموند Le Monde في هذه المناسبة الرقم الخيالي للأموال التي يملكها وأخرجها من السعودية عبد الله السليمان، وزير المالية السابق لابن سعود، ومعاونه نجيب صالحه[٢] .لقد عزل الملك الجديد في ٣ سبتمبر«أيلول» ١٩٥٤م عبد الله

(١) في ٤/ ١٠/ ١٩٥٢م الموافق ١٤/ ١/ ١٣٧٢هـ، انظر: تطور النقود في المملكة العربية السعودية، الرياض، ١٤١٩هـ، ص ٥٤ ( المترجم).

(٢) لوموند، ٨-٩ مايو«أيار» ١٩٥٥م.[اسمه نجيب إبراهيم صالحه، لبناني الأصل ، عين بأمر سام صدر عن الملك عبد العزيز وكيلاً لوزارة المالية المساعد. انظر الكشاف التحليلي لصحيفة أم القرى ، طبعة الدارة، ج٢ص٨٨٦]،(المترجم). مادة رقم ٨٩٨٩ .

السليمان الذي كان منذ عام ١٩٢٨م خازن المملكة. وأوكل التحقيق في الإدارة المالية خلال عهد الملك عبد العزيز إلى مفتشين ماليين سوريين، استقدموا خصيصاً لهذه المهمة. وأعيد تنظيم وزارة المالية، إذ دمجت بوزارة الاقتصاد، وكلف بإدارتها الشيخ محمد الصبان.

## الصناعات اليدوية والنقل

إن ضخامة أرامكو تجعل للمجالات الاقتصادية التي يغيب عنها البترول أهمية لا تكاد تُذكر. ونجد في المملكة شركة أجنبية أخرى، كانت حتى وقت قريب تستثمر مناجم الذهب الواقع في منطقة مهد الذهب، على بعد ٤٠٠ كم شمال جدة. كانت شركة سعودي أرابيان مينغ سينديكيت Saudi Arabian Mining Syndicate تنتج خام الذهب والفضة، وتجري تنقيتهما في الولايات المتحدة الأمريكية. إلا أن فقر[٨٣] المنجم دفع الشركة إلى العدول عن استثماره. وهناك مناجم أخرى للمعادن الثمينة معروفة منذ زمن بعيد، ولكنها فقيرة لا تصلح للاستثمار. وهناك أيضاً مناجم الكبريت(أكسيد الباريوم) والجص، والملح والحديد، ولكنها لم تستثمر حتى الآن.

وهناك في بعض المدن والواحات صناعات يدوية يمارسها السكان منذ عهود قديمة، وهي اليوم تقف بصعوبة أمام البضاعة الرديئة التي تُستورد من أوروبا، ومن الولايات المتحدة، واليابان. لقد كانت تزدهر على أطراف الخليج العربي صناعة اللؤلؤ، ومازال هناك حتى اليوم أماكن صيد ناشطة على البحر الأحمر وعلى الخليج، يعمل بها سكان السواحل، كما يعملون في بناء المراكب العربية المشهورة. إن لكل هذه فائدة محلية ومحدودة. ومن الجدير بالذكر أن صناعة أحجار البناء يدوياً تطورت بتطور النهضة العمرانية. وقد أقامت شركة فرنسية في الخرج(نجد) مصنعاً للذخيرة، دشنه الملك شخصياً في عام ١٩٥٤م.

إن دخول الآلة مجال النقل يقتضي شبكة من الطرقات المعبدة، في بعض مراحلها على الأقل، ويقتضي أيضاً محطات وقود، وورش صيانة ميكانيكية. إن الشاحنات الضخمة التي تلتف حول الكثبان، والتي تتفادى الغور في الرمل بفضل

عجلاتها العريضة، أصبحت أكثر شيوعاً من الجمال. وتجارة السيارات الخاصة هي واحدة من أكثر أنواع التجارة رواجاً وربحاً. والسماء السعودية تضج بهدير الطائرات، لأن النقل الجوي مريح جداً في هذا البلد المترامي الأطراف. إن مستأجري مطار الظهران الأمريكيين يدربون الكوادر السعودية، والطيران الحربي السعودي يرسل طياريه المتمرنين لاكتساب الخبرة في الولايات المتحدة الأمريكية. لقد كان مطار الظهران في عام ١٩٥٤م يشهد، في كل أسبوع، هبوط آلاف الطائرات من مختلف الأحجام قادمة من كل حدب وصوب.

وإن السكة الحديدية التي تصل الدمام بالرياض، وهي قسم من خط حديدي سيعبر الجزيرة العربية من الخليج العربي إلى البحر الأحمر، تربط يومياً الأحساء بالعاصمة الرياض، في قلب نجد. وفي الجانب الآخر من البلد، أُعلن مئات المرات عن البدء في إعادة بناء سكة حديد الحجاز( التي سيوصل بالخط الحديدي العابرة للجزيرة Transarabique ). ويبدو أن الصفة الدولية للسكة، التي تكاد لا تُستخدم إلا للحج، تثير بعض المشكلات السياسية. وفي انتظار إعادة بنائها، لم يتأثر عدد الحجاج الذين يصلون الحجاز سنوياً. إن الشركة [٨٤] العربية للنقل بالسيارات La Société Arabe des Transports Automobiles تحتكر نقل الحجاج بالسيارات، والشاحنات، والسيارات العامة، أو الخاصة. إن شركة النقل بالسيارات، وشركة النقل البحري التي تمتلك عدداً من البواخر البخارية، وناقلة نفط سعتها ٤٦,٠٠٠ طن، شأنها شأن السكك الحديدية والنقل الجوي، هي ملك الدولة[١] . وإن الاتصالات الهاتفية، والبرقية، ومحطات البث الإذاعي تمتلكها الدولة أيضاً، كما هي حالة توزيع الكهرباء، التي امتدت في السنوات الأخيرة إلى المدن كلها.

ولكن هذا النشاط الجديد كله، لم يمنع قسماً كبيراً من السكان، بدواً أو حضراً، من الاستمرار في العيش في اقتصاد بدائي، يكاد يكون نظام الاكتفاء الذاتي.

---

(١) إن هذه السفينة - الناقلة،الملك سعود، شكلت محاولة فاشلة لصاحب السفن اليوناني أرسطو أوناسيس لكسر احتكار أرامكو للنقل البترولي.

# الزراعـــــة

إن الزراعـة، كمـا هو معـروف، ترتبط بتوفـر الماء، لذلك نجـدها في المملكة العربية السعودية تقتصر على بعض الواحات الكبرى، والأودية الكبيرة، وعلى الهِجَر الزراعيـة للإخوان. وأُنشئت مـزارع تجريبيـة منذ عدد من السنوات، تستـخدم الطرق الحديثـة في الري، بالاعتـماد على الميـاه الجوفـية. وهناك في المملكة خـمس مناطق زراعية فـي الأحساء، واحة الهـفوف الكبرى بينابيعـها السبعـة الغزيرة، وتنتج الأرز والخضار والثمار المتنوعة، وأصنافاً من التـمر. القطيف و الدمام هما مركزان زراعيان في المنطقة نفسها. وفي نجد هناك عدد من الواحات الكبرى، وعدد من هجر الإخوان التي يُزرع فيها القمح والثمار والخضار المتنوعة، وكذلك نخيل التمر. وقد أُنشئت في الخرج، غيـر بعيد عن الرياض، عام ١٩٤٥م أول مزرعـة تجريبية ناجـحة في البلاد. وعسير أرض خصـبة لزراعة المدرجات الجبلية، ونجران أرض خضـراء، وهما منطقتان متميزتان تـنتجان تقريباً كل أنواع المزروعات، بما في ذلك قهوة المخـا كما في اليمن. أما سهول تهامة فهي خصبة في الأمكنة التي يسقط فيها المطر، وتنتج مزروعات البلاد الحارة، ومنهـا القطن والذرة والتمر والتـبغ. وهناك في الحجاز [٨٥] أخيـراً واحات وأودية واسعـة تنتج التـمر والقـمح، والثمـار والخضار. وأُنشـئ فيهـا بعض المزارع التجريبية، وخـصوصاً في وادي فاطمة، لأنه من المعروف أن الحجاز كـان فيما مضى مزروعاً أكثر مما هو عليه اليوم.

إن المنتجات الزراعية التي هي بالتـأكيد غير كافية تُسْتهلك مـحلياً، ومنتجاتها الأساسية هي التـمور-بأنواعها المتعددة-والحبـوب-القمح، والذرة، والأرز، وحبوب أخرى متعـددة الأنواع. ستحل المجاعة في المملكة العربيـة السعودية لو أنها اضطرت فجـأة إلى الاعتمـاد على منتجـاتها الزراعـية الحاليـة التي تنتج الحاجـات الضرورية الأولى. وقد شعـر السعوديون بذلك خلال الحرب العـالمية الثانية. وكـان البريطانيون منذ زمن يرسلون فـرقاً لمكافـحة الجراد، وفي عـام ١٩٤٢م، أرسل الرئيس روزفلت

أولى البعثات الزراعية الأمريكية، وكانت بعثة دراسة ومعونة سريعة. أما البعثة الثانية التي قدمت إلى المملكة في عام ١٩٤٤م فقد اهتمت بمشكلة الري خصوصاً، وأقامت في الخرج أولى المزارع النموذجية التجريبية. وبعد الحرب انتهت عدد من البعثات إلى نتيجة مفادها ضرورة زيادة المساحات المزروعة بواسطة الري. ومنذ ذلك الحين استعانت المملكة العربية السعودية بالخبراء الدوليين للفاو F.A.O. المنظمة الدولية للتغذية والزراعة[١] . ولكن عمل هذه المنظمة قائماً على المثل القديم « ساعد نفسك تساعدك السماء»؛ والمملكة العربية السعودية، بلد مسلم يؤمن بالقضاء والقدر «المكتوب!».

ومع ذلك بُذلت بعض الجهود لتحسين وسائل الإنتاج في الزراعات الغذائية الأكثر انتشاراً وغلالاً، وخصوصاً زراعة النخيل. وروى لي أحد الخبراء في هذا المجال، أن بعض الإجراءات البسيطة تسمح، عندما تُعرف وتطبق، بمضاعفة محصول التمر ضعفين أو ثلاثة أضعاف في بعض الأحيان [٨٦]، وبتحسين النوعية في الوقت نفسه. وأُدخلت مزروعات جديدة، على سبيل التجربة أولاً، ثم عُمِّمت على مساحة أكثر اتساعاً بعد نجاحها. ولكن أي تطوير لاحق مرتبط بالري. لقد أسهمت أرامكو، كما ذكرت سابقاً، في تقدم الزراعة عندما حفرت عدداً كبيراً من الآبار. ووضعت على الدوام خبراءها وجيولوجييها تحت تصرف الدولة السعودية. وأُنشئت مئات الكيلومترات من قنوات الري، وأشاعت المزارع النموذجية استخدام الأسمدة والآلات، وكان، وما يزال تعليم الطرق الحديثة في الزراعة وتربية المواشي محور عمل المزارع التجريبية. ولكن النمو بطئ، وتجعله الإمكانيات الطبيعية المحدودة جداً، مأساوياً خالصاً.

إلا أننا نجد، على الرغم من الإمكانيات الطبيعية المحدودة المشار إليها، حالات مفاجئة. ففي الحجاز على سبيل المثال، لوحظ منذ مدة طويلة وجود سدود عديدة صغيرة وكبيرة مهدمة، تنتشر على مساحة تمتد مئات الكيلومترات بين المدينة المنورة ونجران[٢] . وكتب ريتشارد سنجر في عام ١٩٥٤م أن «ترميم هذه السدود ليس

(١) انظر: أنشطة الفاو باسم البرنامج الموسع للمساعدة التقنية في عام ١٩٥٤-١٩٥٥م، روما، يوليو «تموز» ١٩٥٥م.

(٢) انظر ريتشارد سنجر: الجزيرة العربية، م. س، وفيليب ليبنز، رحلة في قلب الجزيرة العربية، م. س.

عسيراً، ولا مكلفاً، وسيساعد السكان في القسم الغربي من الجزيرة العربية على تحسين مستوى معيشتهم». ومع أن اهتمام مديرية الزراعة، التي تحولت إلى وزارة منذ عام ١٩٤٨م، كان منصباً، إذا صدقنا ما تقوله الوثائق الرسمية، على «زيادة المساحات المزروعة بتطوير شبكات الري، واستصلاح الآبار والسدود، وبناء قنوات مياه ومشاريع أخرى تعوض عدم سقوط الأمطار»[١] . إلا أن اعتمادات «الزراعة» ضئيلة في الموازنة، والمهمة عسيرة في هذا البلد المترامي الأطراف، الذي تعاني بعض مناطقه قحطاً لا يُرجى زواله. والمشروعات الكبرى مستحيلة التنفيذ، ولعل اللجوء إلى عدة مشاريع صغيرة يمكن أن يُحسن الوضع. ولعله من الأفضل توفير المخصصات اللازمة لذلك، بدلاً [٨٧] من استيراد كميات من المواد الغذائية تزداد الحاجة إليها يوماً بعد يوم. يمكن على سبيل المثال تعميم استخدام الآلة في استخراج المياه؛ وتوزيع المضخات الآلية بفضل نظام إقراض تضعه الدولة، وقد سبق لمثل هذا الإجراء أنْ سمح بزيادة المساحة المروية. إن إجراءات كهذه ليست عسيرة التحقيق، ومن المفيد الإكثار منها.

ومهما يكن من أمر فإن تطوير البلد زراعياً يصطدم بطبيعة البلاد القاحلة؛ ويبدو من المستبعد تماماً أن تستطيع المملكة العربية السعودية في يوم من الأيام إنتاج ما يكفي من المواد الزراعية للاستهلاك المحلي. هذا البلد ليس بلداً ناميا بالمعنى الحقيقي للمصطلح؛ بل هو عاجز عن أن يتخطى في تطوره بعض الحدود، على الرغم من الموارد الضخمة التي يحصل عليها. ولكن هذا لا يعني أن ننكر ما يحدث من تحسينات جزئية في بعض المجالات.

## مكانة تربية المواشي

سبقت الإشارة إلى أن ثلث السكان، حسب التقديرات المتفق عليها، من البدو. ولا أود التوقف كثيراً عند الفارق بين الدرجات الممكنة في « البداوة »، ولكنني أقول إن هذا الثلث يمثل ٢ مليون بدوي تقريباً. وتعد تربية المواشي أهم

(١) انظر على وجه الخصوص: أم القرى، رقم ١٣٢٠ في ١٩/ ٧/ ١٩٥٠م؛ وثائق حول المملكة العربية السعودية، م. س.

وسائل حياة البدو، والمصدر الأول لعيشهم. إن البدوي الحقيقي يحتاج إلى قليل من الأشياء-القهوة، والسكر، والأرز، وبعض حبات التمر، بعض القماش الخفيف-ناهيك عما تنتجه مواشيه.

ويمارس المزارعون الحضر، وبعض قدامى البدو أيضاً تربية المواشي، ويربون أنواعاً مختلفة من الحيوانات؛ فمنهم من يربي الطيور والدواجن، ومنهم من يربي النحل. وتربية النحل قديمة كل القدم، وتقليدية في أكثر مناطق الجزيرة العربية، لأن العسل غذاء يحبه العرب كثيراً [1].

وتُرَبَّى الأغنام، والماعز بكثرة للاستفادة من حليبها، ولحمها، وصوفها، أو وبرها وجلدها. أما الجمال التي لم تعد وسائل ضرورية للنقل أو الحرب، فما تزال تُربى من أجل حليبها ولحمها، وتستخدم للركوب أيضاً. [٨٨] أما الأبقار فنجدها لدى الحضر، في الواحات والقرى.

حاولت البعثات الزراعية الأجنبية، والمزارع النموذجية، ومراكز التجارب التي أنشأها الخبراء الأمريكيون والدوليون، تحسين طرق تربية المواشي، وخصوصاً في مجال تحسين النسل. ويمكن أن نأمل في هذا المجال أن يؤثر ذلك في مربي الماشية والمزارعين الحضر؛ أما الرُّحَّل، الذين هم المستهدفون أساساً، فإنهم سيظلون زمناً طويلاً لا يقبلون بذلك.

إن الثورة الاقتصادية لم تطل البدوي مباشرة، إنه في مرحلة الدهشة، بل الانبهار، أمام التقدم التقني للحضارة الصناعية.

يروي المطلعون على الأمور، ومسئولو شركات البترول على وجه الخصوص، غرائب عن البدوي الذي تحول إلى ميكانيكي، وإلى عامل محترف.

وفي نهاية هذا الفصل أرجو التأمل في هذا الرقم: توظف أرامكو ما يقارب خمسة عشر ألف عربي؛ وهناك مليونا بدوي في المملكة العربية السعودية يعيشون من تربية المواشي، وهؤلاء لم يعرفوا البترول إلا بالسمع، بل إنهم ربما لم يسمعوا به.

(١) انظر « سورة النحل» في القرآن الكريم .

# [٨٩] الفصل السابع

# المملكة العربية السعودية على المسرح العالمي

استطاعت المملكة العربية السعودية، على الرغم من حالة التأخر الذي كانت تعيشه، وقبل أن يُكتشف البترول، أن تفرض نفسها على الساحة الدولية منذ تأسيسها.

أما اليوم، فالبترول والإسلام، دعامتا المملكة، يمنحانها حضوراً متنامياً على المسرح الدولي. وإذا كان الملك عبد العزيز قد اتبع سياسة حذرة، ومتحفظة خلال فترة طويلة من الزمن، فإن خليفته سعوداً أسهم إسهاماً أكبر في السياسة العالمية، لأن الظروف تغيرت تغيراً جذرياً. إن خدمة الأماكن المقدسة التي يتطلع إليها ٤٠٠ مليون من البشر، و٣٥ مليار برميل من البترول، تخولان سعود الحق والإمكانية ليرفع صوته عالياً، ولكن الفقر المتمكن في بلده، وطبعه الشخصي، يجعلان هذا السلوك مفارقة غريبة. ولكن إدارة الإمبراطورية السعودية تتطلب، كما هو الحال في جسم الإنسان، صفات داخلية تنعكس في السياسة الخارجية.

إن نجداً الموحشة، مهد آل سعود، والدعوة الوهابية، والإخوان، تقع بين الأرض المقدسة في الحجاز، وبين البلد الصناعي في الأحساء، في طرفي الجزيرة العربية، وتحتل موقعاً رمزياً في قلب المملكة: إنها مركز الثقل، وهي التي تحفظ التوازن بين الحجاز التي تتجسد فيها التقاليد، والأحساء التي تندفع نحو التحديث. في قلب هذا « البلاد المرتفعة» أرسى الملك عبد العزيز عاصمته، الرياض، محور المملكة، الذي يستطيع منه الهيمنة على المناطق المفتوحة. وفي هذه العاصمة البدوية استطاع سعود أن يجد الصيغة اللازمة للتوفيق بين مصالحه التي تجبره على إقامة علاقات جيدة مع «الكفار»، وبين إيديولوجيا [٩٠] العروبة والإسلام، التي تزداد عداوتها مع الأيام لكل تحالف مع الغرب. وهي مشكلة ليست بجديدة، ولكنها بلغت في السنوات الأخيرة ذروتها.

كان الملك حتى الحرب العالمية الثانية يعتمد على الصداقة القائمة على المصلحة مع بريطانيا، التي حملته على الاعتراف بمكانتها المتميزة حول الجزيرة العربية. كان ابن سعود مخلصاً إذا صادق، وقاسياً إذا عادى، وكان ما يزال يمارس سياسة شيوخ الصحراء، عندما وصل رجال البترول الأمريكيون، ودفعته واقعية الأعمال التجارية الضخمة إلى إقامة علاقات تجارية متشابكة مع الولايات المتحدة الأمريكية. وبدأت الهيمنة البريطانية تتراجع شيئاً فشيئاً، حتى جاء اليوم الذي استطاع فيه عبد العزيز غير أسفٍ «التخلص» من بريطانيا.

إن قضية فلسطين من جهة، والإصرار البريطاني على صيانة استقلال الإمارات الواقعة على الخليج العربي، وعلى حماية العرشيْن الهاشميين في العراق والأردن من جهة أخرى، أفسد على بريطانيا شيئاً فشيئاً صداقة ملك الرياض. وفتح الباب على مصراعيه أمام الشركات الأمريكية للعمل في المملكة، مما أدى إلى تنامي النفوذ الأمريكي. ولم يفوت «الأمريكيون المستريحون»، الفرصة، دون الادعاء أن لهم نفوذاً حقيقياً، ولكنه ليس بخافٍ ارتباط الاقتصاد السعودي المتزايد بالاقتصاد الأمريكي.

وعلى الرغم من ذلك-أو ربما بسببه-أظهرت المملكة العربية السعودية، التي حصلت على الأمن والمكانة، رفضها القاطع لأي تحالف صريح مع الغرب. لقد كان هناك مبدآن أساسيان اتسمت بهما السياسة الخارجية للمملكة العربية السعودية: الوحدة العربية ذات الصبغة الإسلامية؛ والعروبة والإسلام كثيراً ما يتدخلان. وسياسة الحياد التي فرضت نفسها في إطار تطور للأحداث، منطقي تماماً. إن المؤامرات الأنجلو-أمريكية الهادفة إلى إقامة تحالف عربي معادٍ للسوفييت، عجلت بالقرار السعودي، الذي لا بد منه: رفض الاختيار في نزاع لا يمس الإسلام والعرب مساً مباشراً. وإن هذا الرفض هو الذي أسهم [٩١] في رفع منزلة المملكة العربية السعودية إلى مصاف القوى المسموعة الكلمة. وإن معاداة الاستعمار أخيراً، وعلى الرغم من

أنها كانت شعاراً مرفوعاً على الدوام، بقيت على الجملة نظرية إلى حد بعيد في أيام الملك الراحل عبد العزيز. وجعل منها ولده وخليفته، مطيته الأثيرة حتى لا يبدو متقاعساً عن الانضمام إلى دول الحياد التي نظمت نفسها في مؤتمر باندونغ.

وكان فيلبي في عام ١٩٥٤م قد أبدع في وصف الوضع الدولي للمملكة العربية السعودية، والنتائج الرئيسية المترتبة على ذلك، فقال: إن المملكة العربية السعودية بلد يسطع نجمه على المسرح الدولي، وتتسم سياستها الخارجية بأنها عربية إسلامية، وعلى ذلك لا بد أن يكون لها مركز الصدارة بين الدول التي اصطلح على تسميتها بالنامية. وإن الأحداث التي ينبغي الاعتراف بأن الدبلوماسية الأنجلو-أمريكية ساعدت في حصولها، بينت صواب رأي فيلبي: وكانت نتائجها ترسيخ سياسة«الحياد»، وتبنياً علنياً «للمبادئ الخمسة»، لمعادة الاستعمار، ومعارضة الانضمام إلى التحالفات الغربية، والتقارب المتحفظ، الحذر من مصر، زعيمة الوحدوية العربية. وقد رأينا الرياض، الحائرة بين بغداد والقاهرة تسجل في عام ١٩٥٧م، بعض التغير المذهل في موقفها. وما ذلك إلا لأن سياسة المملكة العربية السعودية الخارجية برمتها لا تخرج عن هذا الإطار: الإسلام والبترول.

## المعالم البارزة

أرى أنه من الضروري هنا، ودون أن أدخل في تفصيلات تاريخ دبلوماسي أحداثه قليلة نسبياً، أن أحاول توضيح كشف المعالم البارزة في السياسة الخارجية السعودية، وبعبارات أخرى، أسباب ثباتها، وإن كان مظهرها متغيراً [١].

كانت المملكة العربية السعودية، قبل اكتشاف البترول، تدور في فلك النفوذ البريطاني. وكانت بريطانيا، في واقع الأمر، منذ أيام معاهدة جدة، التي عقدت في عام ١٩٢٧م[١]، والتي أضفت على المملكة بعداً دولياً، هي المحاور الوحيد الذي

(١) انظر دراستي: المملكة العربية السعودية في الشرق الأوسط، م. س.

يستطيع التحدث باسم جيرانه كلهم(باستثناء اليمن). كانت الإمبراطورية البريطانية في أوج قوتها في الشرق الأوسط تسيطر طوعاً أو كرهاً على الشؤون الخارجية للكويت،[٩٢] وللبحرين، ولقطر، ولشيوخ خليج القراصنة، ولسلطنة مسقط وعمان، ولسلطنة حضرموت، وللعراق، ولشرق الأردن. والأمر الأهم أن الجارين الشماليين اللذين تنتهي إليهما حدود الجزيرة العربية(العراق والأردن) هما تحت سلطة الهاشميين، الذين أخرجهما الملك عبد العزيز من الحجاز، ووضعتهما بريطانيا، دولة الانتداب، على عرشيهما[٢] . وإن خطوط الاتصال البرية الوحيدة للمملكة العربية السعودية مع البحر الأبيض المتوسط، ينبغي أن تمر في أراضي فيصل وعبد الله ابني الحسين، شريف مكة المكرمة سابقاً.

كان الهاشميون، ومازالوا يكنون عداوة شديدة لآل سعود الذين جردوهم من دورهم المجيد في حماية الأراضي المقدسة. وظل الملك عبد العزيز، فترة طويلة، يخشى محاولة الهاشميين استعادة الحجاز. و على الرغم من ذلك أدى الضغط البريطاني المستمر على الطرفين إلى توقيع معاهدة الأخوة العربية والتضامن، عام ١٩٣٦م بين العراق والمملكة العربية السعودية. إن انفتاح الملك الشاب غازي، وحنكة الملك عبد العزيز السياسية، تضافرا لوضع حد ظاهري للمنازعات. ولكنه لا حقد أولئك خبا، ولا حذر هؤلاء زال. وستظهر الخلافات الأساسية بين البيت الهاشمي والبيت السعودي، في المعارضة السعودية الشديدة للمشروع الذي كان البريطانيون يحرصون كل الحرص على إنجازه، إنه: الهلال الخصيب(سورية الكبرى). إن اتحاد العراق وفلسطين وسوريا ولبنان في دولة واحدة، تحت الحكم الهاشمي-كما كان يحلم بذلك منظرو وزارة الخارجية البريطانية- من شأنه أن يضع المملكة العربية

(١) عقدت هذه الاتفاقية في جدة في ١٨ ذو القعدة ١٣٤٥هـ الموافق ١٩ مايو ١٩٢٧م. وليس كما اشير في الأطلس التاريخي، طبعة الدارة من إنها في ٣٠ مايو ١٩٢٧م، ص٢٢٨ . ( المنيف)

(٢) نعرف أن إمارة شرقي الأردن، التي أصبحت منذ عام ١٩٤٩م، المملكة الأردنية الهاشمية ، هي صنيعة بريطانية خالصة، ولا تعتمد على أي معطيات تاريخية، أو جغرافية، أو عرقية، أو سوسيولوجية، وبدرجة أقل أيضاً -وعلى الخصوص- اقتصادية.

السعودية أمام جار أشد قوة، وفي ذلك خطر كبير على ابن سعود. إن الوحدة العربية والإسلامية التي يرنو إليها آل سعود تنطلق من فرضية محددة بوضوح: ينبغي أن تتم حول-وليس ضد- أسياد الجزيرة العربية.

## الصراع السعودي-اليمني

كان عبد العزيز في سلسلة فتوحاته المدهشة[٩٣] يعرف أين، ومتى، يتوقف. وقد ظهر اعتداله وتبصره السياسي في أثناء النزاع السعودي- اليمني. ففي عام ١٩٣٣م، أعلن اليمن الحرب على المملكة العربية السعودية سعياً للسيطرة على عسير ونجران. وكان الإمام يحيى يعاني، في الوقت نفسه، مشكلات مع البريطانيين على حدوده الجنوبية، في محمية عدن. ولم تمضِ ٤٥ يوماً حتى كانت القوات السعودية بقيادة الأمير فيصل قد وصلت إلى ميناء الحُديدة، . فسارع اليمن إلى إعلان قبولها الشروط التي سبق أن عُرضت عليها في أبها ١٧ فبراير«شباط» ١٩٣٤م. وعلى الرغم من تفوقه العسكري، قبل ابن سعود سحب قواته من تهامة اليمنية. وتم بذلك في ٢٠ يونيو«حزيران» ١٩٣٤م توقيع اتفاقية أبها[١]. واعترف اليمن بالسيادة السعودية على الأراضي المتنازع عليها، ورضي ووافق على تشكيل جبهة اقتصادية ودبلوماسية موحدة معها.

لقد كان ميثاق أبها تجسيداً لسياسة التوازن والتحكيم بين الشعوب العربية والإسلامية، وهي سياسة سيسير عليها ابن سعود خلال زمن طويل. وفي غداة توقيع الاتفاق، ارتبط عاهلا المملكتين القائمتين على أساس ديني في الجزيرة العربية بصداقة كانت تزيد مع الأيام متانة وثقة، على الرغم من التباين الديني(الزيدية والوهابية)، والقبلي(عرب الشمال وعرب الجنوب)[٢] . وفي عام ١٩٤٨م، عندما اغتال أحد

(١) ليس هناك اتفاقية باسم أبها. إنما الإتفاقية هذه التي يشير إليها المؤلف هي اتفاقية الطائف، التى تمت في ٦ صفر ١٣٥٣هـ الموافق ٢٠ مايو١٩٣٤م. وليس كما ذكر المؤلف اعلاه ( المنيف).

(٢) أذكر هنا التنافس القديم بين القحطانيين وعرب قلب الجزيرة العربية وشمالها، وعلى وجه الخصوص أيضاً، بين الفرقة الزيدية في اليمن، وبين الوهابيين السنة في نجد.

المتطرفين الإمـام يحيى، كـان دعم الملك عبـد العزيز حـاسمـاً في عودة ولي العـهد الشرعي إلى العرش. وفي عـام ١٩٥٥م، أخفق انقلاب جديد بفضل مـساعدة الملك عبد العزيز، الذي هب لمساعدة أحمد بن الإمام يحيى.

ويلاحظ المراقب الأجنبي أن حنكة ابن سـعود دفعـته إلى التحـالف مع أعدائه القدامى التـقليديين، الهاشـميين في العراق، والـزيديين في اليمن. إن هذه السيـاسة ليست إلا استمراراً لسياسة التحالف مع القـبائل التي انتهجها على الصعيد الداخلي، ثم نقلها فـيما بعد إلى الصـعيد الدولي، وهو صعـيد ما يزال غيـر واضح المعالم في العربية الصحـراوية. إن أقوال الملك الراحل وأفعاله تفصح عن رغـبة أكيدة [٩٤] في أن تتقارب الشـعوب العربية والإسلامية وتـتوحد، بل إن اهتمامه بالوحـدة الإسلامية كان يطغى على كل اهتماماته الكبرى.

## العامل الإسلامي والحج

إن الأهمية الأسـاسية للعامل الإسلامي تأخذ شـكلاً ملموساً في الحج السنوي إلى مكة المكرمة وزيارة المدينة المنورة. إن الحج الذي يؤديه مـئات الآلاف من الحجاج يؤكد في كل سنة مركـز الحجاز الفريد(ومن ثَمَّ مركز المملكة العـربية السعودية) لدى فريق كـبير من البـشرية، وخـصوصاً في قـارة آسيا. ويصل الأمـر بالباحث الكبـير المختص بالإسلام فـانسان مونتيي إلى حـد القول إن الحج « يعمل على جعل سـياسة الإسلام مـركزية»[١] . وإن كنت لا أوافق مـونتيي على مـا ذهب إليه فـإنه لا يمكننا التقليل من أهميـة الاحتكاك الذي يوفره هذا اللقاء السنوي بين هذه الأعـراق المختلفة من دار الإسلام. وقـد حاول ابن سـعود منذ عـام ١٩٢٦م تنظيم هذا اللقاء العـفوي لزعمـاء المسلمين وأعيانهم، فـدعا إلى عقـد مؤتمر إسلامي في مكة المكرمـة. وساد الاعتقاد أن ابن سعود كان يهدف إلى إعلان نفسه خليفة على المسلمين. ولكن ضعف

(١) انظر العرب، لفانسان مونتيي، م. س.

الاهتمام الذي لقيته الدعوة لهـذا المؤتمر في العالم الإسلامي جعلته يتخلى عنه، وعن طموحه المزعوم في الخـلافة. وعادت الفكرة نفسها إلى الظـهور عام ١٩٥٤م، عندما راودت الملك سعود فكرة عـقد مؤتمر إسلامي، فانعـقد المؤتمر، وتمخض عن تأسيس أمانة عـامة للمؤتمر الإسـلامي. وبدا أن مصر تود الحـصول على إدارة الأمانة العـامة بترشيح الجنرال أنور السادات لمنصب الأمين العام للمـؤتمر الإسلامي. إن صحوة العالم الإسلامي، الآسـيوي، والعربي، والإفريقي يشكـل قرينة جديدة لنجاح هذه الحـركة. ولكنها في الوقت الحاضر ليست إلا أداة أخرى من أدوات خدمة الطموحات المصرية.

كان عدد الحـجاج في حج عام ١٩٥٣م ٥٠٠ ألف حاج، حـسب الإحصاءات شبه الرسمـية، و٧٠٠ ألف حاج في عام ١٩٥٥م[١] . ويمكن أن نقف موقف الشك من هذه الأرقام المأخوذة من مـصادر سعودية. ولكنه يبدو لنا أن تقديـر عدد الحجاج بـ٢٠٠ إلى ٣٠٠ ألف حـاج [٩٥]في السنة، هو رقم يحظـى بقبـول مـعقـول. إن ضخامة الحدث تسوغ تركيز الزعمـاء السعوديين على الظاهرة الدينية أكثر من تركيزهم على الظاهرة الاجـتماعـية. الإسلام دين شـامل، يتغلغل في أبسط تفـاصيل الحـياة اليوميـة. إنه دين المساواة بما لا مزيد عليه. إن الوعي الإسـلامي من المحيط الأطلسي إلى الهند يزيل فـوارق اللون واللغـة. إنه، في بعض الأحـيان، أقـوى من المشاعـر القومية المختلـفة. لقد استقبل الناس الملك سعود في كـراتشي كما في الرباط مهللين «يعيش ملك الحجاز»، لأنه حامي الأماكـن المقدسة. إن الملك السعودي، وإن كان لم يصل بعد إلى تجسـيد صفة الخلافة، هو أقرب مـا يكون إلى لقب أمير المؤمنين الذي حُرم منه مسلمو اليوم.

إن أولوية الفكرة الإسلاميـة على الفكرة العربية لها ما يسوغـها إذا أمعنا النظر في ذلك. لإن قسـماً لا يستهـان به من العالم المسمى: العـربي، لم يصبح في واقع الأمر عربـياً إلا نتيجـة لنشر الإسلام، وإن القضـية في ذلك محسـومة. إن لمصطلح

(١) أم القرى ، صحيفة يومية [الصحـيح : اسبوعية] تصدر في مكـة المكرمـة، ٢٨ أغسطس« آب » ١٩٥٣م، و ٥ منه عام ١٩٥٥م.

«عربي» بالنسبة إلى العرب الخلَّص من الجزيرة العربية، معنى دقيقاً، محدداً جغرافياً، وليس له الشحنة العاطفية التي ينسبها إليه المستعربون، المصريون، والشرق أوسطيون، أو الشمال-أفريقيون. وهو في بعض الأحيان مرادف لكلمة بدوي(حتى في الجزائر). إن التركيز على الأخوة الإسلامية تمنح الأسرة الحاكمة السعودية فرصة إقامة علاقات طيبة مع البلاد الإسلامية غير العربية، البعيدة والقريبة، وفي ذلك مصلحة كبيرة للمملكة، ويمكِّنها أيضاً من إنشاء شبكة من التحالفات القائمة على العامل الديني الإسلامي، وهو أمر سيظل طويلاً جوهر السياسة الخارجية السعودية. ويفضي كل ذلك إلى نتيجة منطقية تماماً، هي: أن القوى الأوروبية التي تقيم علاقات مباشرة مع ابن سعود هي: فرنسا، وبريطانيا، وهولندا، والاتحاد السوفيتي، حتى حصل التغلغل الأمريكي، الذي بدأ مع اكتشاف البترول عام ١٩٣٨م.

## فرنسا والمملكة العربية السعودية

كانت فرنسا واحدة من أولى القوى العظمى التي اعترفت عام ١٩٢٥م بالملك عبد العزيز آل سعود ملكاً على الحجاز،[٩٦] وأول دولة رفعت مستوى تمثيلها الدبلوماسي في عام ١٩٢٩م من قنصلية في جدة إلى مفوضية. وهي اليوم سفارة. ومنذ ٢٢ سبتمبر«أيلول» ١٩٢٥م، عقدت فرنسا مع المملكة اتفاقية تجارية باسم دول المشرق التي كانت تحت الانتداب الفرنسي. وعارضت فرنسا بقوة، شأنها شأن المملكة العربية السعودية، المشروعات البريطانية «الهلال الخصيب» أو «سورية الكبرى» الهاشمية. ولكن هذه المواقف لا تكفي مع ذلك لشرح العلاقات السعودية-الفرنسية الطيبة.

يتميز عرب الصحراء باندفاعهم وراء عواطفهم. وكان الملك عبد العزيز، في مناسبات عديدة، يلمح إلى تبادل الرسائل بين جده ونابليون الأول في أثنا حملة الإمبراطور على المشرق. ويتحدث بنوا ميشان في كتابه عن ابن سعود عن بعثة فرنسية

برئاسةلاسكاريس M. Lascaris، أرسلها بونابرت إلى عبد العزيز الأول في عام ١٨١١م. وقد هاجم الوهابيون تركيا على جبهتها في بلاد الرافدين بناء على طلب إمبراطور الفرنسيين، ولكن هزيمة الجيوش النابليونية واندحارها وضع حداً للتحالف الفرنسي- العربي[١] . ومهما كان نصيب تلك الأحداث من الصحة، فإن إعجاب ابن سعود « بالإمبراطور العظيم » كان مصدر شعور صداقة نحو فرنسا، انعكاساً بعيداً للمجد الذي حققته الملحمة النابليونية. إن مصالح فرنسا الضخمة في أرض الإسلام، في إفريقيا الشمالية، وفي إفريقيا السوداء، وفي بلاد المشرق فيما مضى، كل ذلك، يمنح العلاقات الطيبة مع أسياد الحجاز أهمية استثنائية.

وإذا كان ممثلو المملكة العربية السعودية في الأمم المتحدة يسرفون أحياناً في إطلاق الأقوال العنيفة ضد فرنسا، فإن للضرورات أحكامها، والعلاقات الدبلوماسية بين البلدين ظلت طيبة إبان فترة طويلة. وفي عام ١٩٥٥م، عندما سُمي الأمير طلال بن عبد العزيز، أخو الملك، سفيراً في فرنسا، قدم أوراق اعتماده للرئيس كوتي Coty، وأعلن عن غبطته للتوقيع مؤخراً على اتفاق فرنسي-سعودي، يتم بموجبه تسهيل دخول الأماكن المقدسة[٩٧] للمواطنين الفرنسيين من شمال إفريقيا. لقد كانت فرنسا، خلال السنوات الحاسمة في مسيرة المملكة العربية السعودية، من مايو«أيار» ١٩٤٩م إلى نوفمبر«تشرين الثاني» ١٩٥٥م، ممثلة في جدة بسفير من الطراز الأول، أحسن كل الإحسان في تنفيذ مهمته، التي كانت في غالب الأحيان محفوفة بالمصاعب. لنتذكر أنها سنوات كانت فيها حدة التوتر تتصاعد دون توقف في شمال إفريقيا، بداية في تونس، ثم في المغرب، وأخيراً في الجزائر. كانت السياسة الفرنسية حينئذٍ هدفاً لانتقادات عنيفة من الجامعة العربية، ومن الدول الأعضاء فيها، وكان عنف تلك الانتقادات يزداد يوماً بعد يوم. وقد استطاع فخامة السفير جورج غيرو Georges Gueyraud أن يقوم بمهمته الصعبة على أحسن وجه، تلك المهمة التي كانت تتمثل في الإجابة على طلبات الإيضاح المتكررة التي كان يطلبها العاهل

(١) بنوا ميشان: ابن سعود، ص٨٤ إلى ٨٦ . وانظر الترجمة العربية، ص ٣٤-٣٩ (المترجم).

السعودي حول خطوات تخص الإجراءات التي تتخذها الإدارة الفرنسية في تونس أو المغرب. لقد حرص رئيس البعثة الدبلوماسية الفرنسية على الإشادة دوماً بما كانت تتسم به طلبات الإيضاح من لياقة، وسمو في المشاعر إزاء فرنسا من الملك الراحل. وأخيراً، وبعد أن كانت مواقف فرنسا والمملكة متطابقة بشأن مشروعي«الهلال الخصيب» و«سورية الكبرى»، فإنها تطابقت أيضاً بخصوص مسألة رئيسية كبرى في الشرق الأوسط: إنها مسألة إعلان حلف بغداد. إن الآثار السلبية لهذه السياسة ما فتئت تؤكد صحة المعارضة الفرنسية والسعودية، التي انضم إليها زعماء حزب العمل البريطاني. ومع ذلك أدى العدوان على بور سعيد ( العدوان الثلاثي على مصر) في نوفمبر«تشرين الثاني» ١٩٥٦م، إلى قطع العلاقات الدبلوماسية بين فرنسا والمملكة العربية السعودية.

## تدعم النفوذ الأمريكي

إذا كان الملك عبد العزيز بن سعود ظل حتى وفاته مخلصاً لأصدقائه، فإنه لم يكن يستطيع أن يتلافى تزايد النفوذ الأمريكي. وقد حصلت أولى التحولات في سياسته الخارجية عام ١٩٥٠م. لقد كان الملك العظيم في ذلك الحين يرى قواه وقدراته يدركها الوهن، فدعا ابنه الذي سيخلفه إلى تحمل مسؤوليات أكبر في إدارة المملكة. في هذه السنة، وفي ٣٠ ديسمبر« كانون الأول» اتفقت أرامكو والمملكة العربية السعودية على اقتسام العائدات البترولية بالتساوي، وكان الإنتاج قد بلغ ٢٦ مليون طن.[٩٨] وانتهت حرب فلسطين بهزيمة مرة للعرب، ودخل الشرق الأوسط في عصر اضطرابات وعدم استقرار. لقد مُنحت حينئذٍ امتيازات بترولية في المناطق المحيطة بالجزيرة العربية، وظهر أن بعضاً منها مربح؛ وأثار التنقيب المستمر صراعات على السيادة في أراضٍ صحراوية غير مأهولة، وليس فيها حدود واضحة. واشتعلت قضية البريمي بعد ذلك بقليل، ووجهت هذه القضية ضربة قاضية للعلاقات السعودية-البريطانية.

إن ما قام به الدكتـور مصدق، عندما أمم شركة البتـرول الإنجليزية الإيرانية في بداية عام ١٩٥١م، دل على مدى أهمية بترول الشرق الأوسط في الاقتصاد الأوروبي والعالمي. وأصبح النزاع اختبار قوة صنع ثروة البلاد العربية. كان على المملكة العربية السعودية والكويت، الواقعتين على الجانب العربي من الخليج، زيادة الإنتاج لتعويض توقف تدفق البترول الإيراني، وهو توقف حرم السوق من ٣٢ مليون طن من البترول الخام سنوياً. لقـد كان العالم حينئـذٍ في خضم ما يسمى بالحـرب «الباردة»، وحرب كوريا في أوجها، وألمانيا المجزأة تود استعـادة وحدتها؛ وفرنسا تحارب في شبه جزيرة الهند الصينية.

لقد وجـدت المملكة العربيـة السعوديـة نفسهـا مضطرة إلى اتخـاذ مواقف من مشكلات كانت تود أن تبقى في معزل عنها. وطالما كان الملك عبد العزيز حياً، كانت سياسته الخارجية وسطاً بين صداقاته التقليدية، وضرورة أن يكون للمملكة وجود في العالم المعاصـر. ولما كانت المملكة غير مهـيأة لدورها الجديد، فإنها وجدت نفـسها تُدْفع دفـعاً بتطور الأحـداث إلى المسرح العـالمي. ولكنها، مع ذلك، لم تتـخلَّ عن السياسة العربية الإسلامية. بل إنها ظلت على العكس الأساس الأكثر صلابة للسياسة الخارجية السعودية. لقد كـان من شأن الالتزام بمبدأ دار الإسلام، المرتكز على العروبة بالمعنى الخاص المحدد، أن يزيد مع الأيام المعارضـة للنظام القائم، ويبعث من جديد الخلافات الأسرية والقبلية القديمة. إن توافق المصـالح بين البلاد المنتجة للبترول أو غير المنتجة أو تنافرها ، سيؤثر بدون انقطاع في المواقف الدبلوماسية التي ينبغي اتخاذها.

وبذلك أصبحت المملـكة العربية السعودية في قليل [٩٩]مـن السنوات، مرتعاً للنفـوذ الأمريكي، وسـاعـد على ذلك واقعـيـة الدولار. إن الفوارق الجـوهرية في السياسة، والاقتصاد، والاجتمـاع ، والإيديولوجيا، بين الدولة الديموقراطية الصناعية الكبرى، والمملكة العربيـة السعودية بادية للعيان. والبـترول وحده هو الذي يمكن أن يفرض مـثل هذا الزواج غيـر المتكافئ، الذي يأمل فـيه كل واحد من الشـريكين ألا

يتدخل الطرف الآخر، إلا في الحدود الدنيا، في شؤونه الأساسية. ولكن بين الحكومتين، بغض النظر عن السياسة، قوة اقتصادية كبرى، إنها الشركة العربية الأمريكية للبترول(أرامكو)، التي تنظم العلاقات بين البلدين بما يتفق مع حسن سير مصالحها[1].

## دبلوماسية البترول

لكي نفهم الدور الذي أدته أرامكو في حقبة كانت فيه أقل قوة مما هي عليه اليوم، ينبغي أن نطلع على ما قامت به إبان الحرب العالمية الثانية. فحتى عام ١٩٤٣م، كانت الولايات المتحدة الأمريكية تعد العربية السعودية تدور في الفلك البريطاني. وبدأً من عام ١٩٤١م وظفت أرامكو، التي كانت قلقة من النفوذ البريطاني الذي مازال نافذاً، كل إمكانياتها لتجعل وزارة الخارجية الأمريكية تشارك في لعبتها؛ وكان هدفها أن يشمل المملكة العربية السعودية قانون الإعارة والتأجير Prêt-Bail. كانت الحكومة الأمريكية في تلك الحقبة، قد منحت بريطانيا قرضاً قيمته ٤٢٥ مليون دولار، تستطيع بها لندن الاستمرار في مساعدة ابن سعود، ناهيك عن أعمال أخرى تقوم بها. ولكن فريدريك أ. دافيسFrederrick A. Davies، رئيس الشركة، صرح بعد ذلك: «إننا واعون تماماً أن الأموال التي تتلقاها المملكة العربية السعودية من البريطانيين هي في واقع الأمر الأموال التي قدمناها للبريطانيين؛ ونحن، بصفتنا شركة، يتملكنا شعور بأنه ينبغي أن تجني الفائدة من ذلك الولايات

---

(١) لعله يكفيني أن أذكِّر هنا بالروابط المادية المباشرة بين شركات البترول التي تشكل أرامكو وبين زعماء الدبلوماسية الأمريكية، فبالأمس داين أشيسون Dean Acheson، وهـ. هوفرH. Hoover Jr، واليوم فوستر دايل Foster Dulles، و سي. هيرتر C. Herterوإن آل روكفلير Les Rockefeller (ستاندارد أويل أوف نيوجرسي) وآل ميلون Les Mellon (غولف أويل كوربوريشن) معرفون بأنهم يمولون الحملات الانتخابية للحزب الجمهوري. وهذا الضرب من التصرفات مقبول تماماً في الولايات المتحدة.

المتحدة الأمريكية، وليس البريطانيين»[1] . إن هذا [١٠٠] الشعور لدى الشركة تمثل بأعمال، وضغوط مستمرة في عدة دوائر من دوائر الحكومة الأمريكية. وأدركت أرامكو في نهاية الأمر غايتها: ففي ١٨ فبراير«شباط» ١٩٤٣م اتخذ الرئيس روزفلت القرار الذي يقضي بمنح المملكة العربية السعودية مساعدة مباشرة، في نطاق قانون الإعارة والتأجير. أو كما كتب ذلك صادقاً، وبعبارات أخرى، المختص المتمكن إدوار سابلييه Edouard Sablier، «لقد ساعدت الشركة العاهل السعودي بأموال دافع الضرائب الأمريكي»[2].

وينبغي أن نعزو إلى دبلوماسية أرامكو أيضاً اللقاء التاريخي بين الرئيس روزفلت والملك عبد العزيز، عام ١٩٤٥م في الإسماعيلية[3] على متن الطراد الأمريكي كوينسي . Quincy ويدين الملك سعود لأعوان الشركة في الحكومة الأمريكية بالاستقبال الحافل الذي لقيه خلال زيارته الولايات المتحدة الأمريكية، في يناير«كانون الثاني»-فبراير«شباط» ١٩٥٧م. لقد اتخذت أرامكو من شعار شركة جنرال موتورز - General Motors التي تربطها بها روابط عديدة، شعاراً لها« إن ما فيه خير للشركة، فيه خير للولايات المتحدة الأمريكية».

---

(١) أو. س. سينات : U. S. SENAT جلسات الاستماع حول المملكة العربية السعودية، ٢٥٠٩١ ( لجنة شكلها مجلس الشيوخ الأمريكي للتحقيق في الأنشطة في العربية السعودية). استشهد بها ب. شودران B. Shwadran في كتابه (م. س.)، الذي يذكر فيه بالتفصيل المساومات القذرة التي كانت تهدف إلى إبعاد البريطانيين لترسيخ وضعية أرامكو.

(٢) « دبلوماسية البترول »، لوموند، ١٣/٢/١٩٥٧م.

(٣) جاء في الأطلس التاريخي للمملكة العربية السعودية، دارة الملك عبد العزيز، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ص ٢٢٤ ، أن المقابلة تمت في البحيرات المرة في قناة السويس. في ٢ ربيع الأول ١٣٦٤هـ/ ١٤ فبراير«شباط» ١٩٤٥م.(المترجم)

## الظهران، قاعدة استراتيجية، ومقر أرامكو

إن الظهران، المدينة البترولية الأولى في الأحساء، أصبحت في عام ١٩٥٢م، بفعل ما سبق، المقر المركزي لأنشطة أرامكو، وهي في الوقت نفسه موقع مطار استراتيجي، بنته الولايات المتحدة الأمريكية، واستأجرته من المملكة العربية السعودية. واستُكْمِلَتْ الأعمال التي بدأت خلال الحرب العالمية الثانية، على الرغم من تحقيق النصر، وفي عام ١٩٤٦م، انتهى العمل في أكبر مطارات المنطقة، وبدأ باستقبال جميع أنواع الطائرات. وبعد ذلك طلبت الولايات المتحدة الأمريكية من المملكة العربية السعودية الحصول على ترخيص بإقامة قاعدة جوية، وحصلت على ذلك. إن مطار الظهران الذي جُهِّز بتجهيزات حديثة متطورة، يقع على مسافة واحدة من كراتشي والقاهرة وباكو، أي أنها قريبة من حليف مخلص(الباكستان)، وبالقرب من قناة السويس، ومن الثروات البترولية السوفيتية في القوقاز. وفي ١٨ يونيو«حزيران» ١٩٥١م، حصل تبادل المذكرات،[١٠١] واعتُمِد نص الاتفاق الأول بعد أن أُجريت عليه التعديلات اللازمة، وأضيف إليه ملحق يتعلق بتدريب الطيارين السعوديين في الولايات المتحدة الأمريكية. والتزمت في مقابل ذلك الولايات المتحدة الأمريكية بتزويد المملكة العربية السعودية بالأسلحة الحديثة، من طائرات ودبابات[1]. وقد جدد الملك سعود هذه الاتفاقيات لمدة خمس سنوات إبان زيارته واشنطن في يناير-فبراير«كانون الثاني-شباط» ١٩٥٧م. وحصل مقابل ذلك على مساعدة مالية كان أوضاع بلاده المالية في أمس الحاجة إليها.

---

(١) انظر أم القرى، مكة المكرمة، ١٣ يوليو«تموز» ١٩٥١م.

-وثائق حول الدفاع عن الشرق الأوسط، نشرة دفاعية رقم ١,٦٩٨ في ٢٢ يناير«كانون الثاني» ١٩٥٣م. وانظر عن هذه الاتفاقية صحيفة أم القرى من ص ١ ــ ٦، وتعرف بنص اتفاقية مطار الظهران والمعقودة في ١٣ رمضان ١٣٧٠هـ الموافق ١٨ يونيو ١٩٥١م.

# الحياد الجديـــد

كان للمملكة الـعربية السعودية على الدوام عـلاقات جيدة مع جارتهـا مصر. فالملك عبد العـزيز في حياته الطويلة غادر بلاده مرة واحدة، وكـانت إلى مصر لزيارة الملك فاروق عام ١٩٤٦م[١] . ولم تؤثر الثورة المصرية في العلاقات بين البلدين. بل إننا رأينا في السنوات الأخيرة توافقاً تامـاً في الدبلوماسية بين الرياض والقاهرة. وقد أراد الملك سعود بذلك أن يدعم سـياسة التضامن العـربي والإسلامي. وتابع العاهل السعـودي، شأنه شـأن والده، العمل على توثـيق العمل العـربي المشتـرك، فربط المملكة العربية السعودية بشبكة من الاتفـاقيات مع مصر، وسورية، والأردن واليمن، وتدعم الرياض القاهرة على الدوام في كل ما من شـأنه أن يجمع العرب. ومع ذلك فإن ما حـدث بعد ذلك أجبر سـعوداً على التقرب من بغـداد عندما تراءى في الأفق خطر يهدد المصالح البترولية في كل من العراق والسعودية.

لقد بذل سعود منذ توليـه العرش ما يصح أن نسميه«نشاطاً دبلوماسـياً مكثفاً». فقام بزيارات مـتعددة لمقابلة زعماء الدول الـعربية، والإسلامية وغـيرهم، والتقى في الرياض، أو على الخلـيج العـربي، نظراءه في الدول المجـاورة، بالأمس في بغـداد، واليوم في بيروت، وغداً في عَمان،لقد حمل العاهل السعودي قسطاً كبيراً [١٠٢]من المسؤوليات تزايدت أهميتها مع الأيام في توجيه سياسة«الكتلة» العربية. كتلة لا تخلو من بعض التـصـدع، حتى إنه يمكن الـقول: إنه ليس هناك مـشكلة، عـدا القـضيـة الفلسطينية، تتفق عليها الدول العربية.

---

(١) لقد زار الملك عبد العزيز رحـمه الله الكويت والبحرين مرتين، والعراق(البصرة) مـرتين، كما زار مصر أربع مـرات، ولعل الكاتب يقـصـد أن زيارته لمصـر كانت الزيارة الـرسمـيـة الأولى. انظر الأطلس التـاريخي، ص٢٢٤(المترجم).

ومنذ ١٩٥٥م، ازدد الأمر تعقيداً. لقد أثار حلف بغداد الذي وقعته تركيا مع العراق سيلاً من الاعتراضات في مصر، ثم في العربية السعودية. ولما انضمت بريطانيا إلى الحلف في ٤ أبريل «نيسان» ١٩٥٥م، بلغت النقمة أشدها في مصر وسورية والسعودية. وانضمت باكستان إلى الحلف عن طريق تركيا، ودخلته إيران في أكتوبر«تشرين الأول» ١٩٥٥م، مما أثار نقمة السوفييت واحتجاجهم. وفي ٢١ و٢٢ نوفمبر«تشرين الثاني» ١٩٥٥م، عقدت كل من تركيا وباكستان وإيران-بلاد إسلامية وليست عربية-، والعراق-عربي وإسلامي ـ وبريطانيا-لا عربية ولا مسلمة- في بغداد اجتماعاً تأسيسياً لمنظمة حلف بغداد، التي تُسمى في بعض الأحيان اتفاقية تنظيم الشرق الأوسط[1]: Middle East Treaty Organization ou M.E.T.O.

لقد قام الجانبان المصري والسعودي ببعض الإجراءات؛ من بينها طرد فيلبي في ١٧ أبريل «نيسان» ١٩٥٥م، بعد أن وجهت إليه تهمة القيام بنشاط يضر بمصالح الدولة السعودية. والاتفاق العسكري السوري المصري على وضع القوات المسلحة في البلدين تحت قيادة مصرية مشتركة في ٢٠ أكتوبر«تشرين الثاني» ١٩٥٥م، وفي ٢٧ أكتوبر ١٩٥٥م تم توقيع اتفاق مماثل بين مصر والسعودية. كما وقع اليمن والأردن أيضاً اتفاقاً مماثلاً. وإذا كان الواقع يدفعنا إلى عدم المبالغة في تقدير القيمة الحقيقة لهذه الاتفاقيات، فإنها، على أية حال، تعبر عن ميول حقيقية كامنة.

وظهر الانقسام الذي أحدثه حلف بغداد بين الدول العربية جلياً في أثناء زيارة الملك سعود للهند في نوفمبر«تشرين الثاني» ١٩٥٥م. والتي جاءت بعد عدة أيام من زيارة بولغانين وخروتشوف للهند، وكرر الملك العربي خلال زيارته، كما فعل الزعماء السوفييت، معارضته الحازمة لحلف بغداد. وأُعْلن رسمياً في البيان المشترك الذي صدر في نهاية الزيارة [١٠٣] عن تبني المملكة العربية السعودية «المبادئ الخمسة المشهورة للتعايش السلمي»، وعن عزم البلدين تمتين أواصر التعاون بينهما. وبمجرد

(١) نجد نص مختلف الاتفاقيات في وثائق الدفاع عن الشرق الأوسط، نشرة توثيقية رقم ١,٦٩٨ (نافدة)، ٢,١٤١ و ٢,١٤٢ ، التوثيق الفرنسي.

عودته من نيودلهي، أعلن الملك سعود رغبته في إقامة علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي؛ ولكن دبلوماسية أرامكو عاودت نشاطها لتحول دون تنفيذ تلك الرغبة التي ظلت في عداد الأماني. أما على الجانب السوفيتي فقد حصل العكس، إذ عرض الاتحاد السوفيتي رسمياً في شهر ديسمبر«كانون الأول» ١٩٥٥م، على المملكة أن يزودها بأسلحة حديثة. ونعرف إجابة الأمير فيصل التي ذهبت مثلاً، عندما سئل عما إذا كان شراء الأسلحة السوفيتية يعرض الشرق الأوسط لخطر انتشار الشيوعية فأجاب: «إننا نشتري حديداً وليس مبادئ[١]!»

ولما جاء عام ١٩٥٦م حمل في طياته طلائع فألاً سيئاً للعلاقات بين المملكة العربية السعودية والعالم الغربي: لقد شهد هذا العام في ٢٦ يوليو«تموز» تأميم قناة السويس، وما ترتب عليه من نتائج، أخطرها الهجوم على بور سعيد في نوفمبر«تشرين الثاني» من العام نفسه. ومنذ ٢٥ أكتوبر«تشرين الأول» ١٩٥٥م، كانت قوات عسكرية تحت قيادة بريطانية قد وضعت مؤقتاً حداً لنزاع طويل، معقد، عندما احتلت واحة البريمي التي تطالب بها المملكة العربية السعودية. وفي ديسمبر«كانون الأول« قامت قوات سلطان مسقط بقيادة ضباط بريطانيين بطرد إمام عُمان، حليف السعوديين، من عاصمته. وبعد معركة بيانات شديدة اللهجة، استدعت الرياض سفيرها في لندن، وكانت العلاقات الدبلوماسية بين الرياض ولندن في مايو«أيار» ١٩٥٦م مقطوعة فعلياً.

إن ما يثير بريطانيا على وجه الخصوص هو استخدام الذهب السعودي في سياسة الشرق الأوسط. وكثيراً ما وجهت للمملكة العربية السعودية اتهامات بالرشوة، وقد استطاعت في هذه المرة(الخلاف على البريمي)، وخلال محاولة التحكيم الفاشلة أن تثبت ذلك: إذ كشف أحد الشهود أمام المحكمة أن الممثل السعودي قد عرض عليه وحده مبلغاً خيالياً وصل إلى ٣٠ مليار فرنك.

---

(١) وثائق خاصة بالعلاقات بين بلاد المنظومة الشرقية والشرق الأوسط، النشرة التوثيقية، رقم ٢,٢٢٦ .

# [١٠٤] سطـــوع نجـــم سعـــود

بعد الأشـهر الستـة الأولى مـــن سنة ١٩٥٦م، التي كانت مـضطـــربة، وفي ٢٦ يوليو«تموز» ١٩٥٦م قام جـمال عبد الناصر بتـأميم قناة السويس، وأدى ذلك إلى حصول الأحداث التي نعـرفها. وأعلنت المملكة العربية السعودية على الفـور وقوفها إلى جانب مصر، ونُقِل عن زعيمهـا قوله: إن السعودية تؤيد قرار الرئيس المصري بلا تحـفظ. وفي الأشهـر التاليـة، توالت مؤتمـرات التشـاور بين زعمـاء الدول العربيـة والأسيـوية بإيقاع سريع، ولم يفوت سـعود أي مؤتمر منهـا. وفي النصف الثاني من سبـتمبر«أيلول» على وجـه الخصوص، أصـبحت الرياض واحدة من أكبـر العواصم العالمية للدبلوماسية العربية-الآسيوية. فعندمـا لا يستقبل فيها الملك سعود عبد الناصر أو نهرو، فـإنه يجتمع في القـاهرة مع المسؤولين المصريـين والسوريين، أو في الخليج العربي للاجتـماع بنظيره الهاشـمي، فيصل ملك العراق. لأن العـاهل السعودي في تأييده التام والمخلص لكل مظاهر العروبة والتضـامن العربي، لا ينسى مطلقاً مصالحه البتـرولية. وينبغ ألا ننسـى أن حرية المرور في قناة السـويس التي يمر عبرهـا القسط الأوفر من البـترول المبـاع لأوروبا، أمر حيـوي بالنسبـة إلى العراق والمملكة العـربية السعودية في آن معاً.

إن العدوان الفرنسي-البـريطاني على بور سعيد في نوفمـبر«تشرين الأول» قطع الأمل من إمكانيـة التـوصل إلى حل تصـالحي. وزاد الطين بلة نسف أنابيب بتـرول العراق في سورية؛ تلك الأنابيب التابعة لشركة العراق بتـروليوم، فخسر العراق قسماً كبيراً، هامـاً من عائداته. وإذا كانت المملكة العربية السعـودية لم تتأثر بهذا النسف، وظلت أنابيب بترولها التي تجتاز سوريا ولبنان سالمة، فإن إنتاجها تأثر بصعوبة وصول الناقـلات البـترولية إلى الخليج العـربي بعـد إغلاق قناة الـسويس. وبدأت الأمـور

بالتحسن في شهر مايو«أيار» مع إخلاء القناة، بينما استمر العراق بتحمل الخسائر التي لحقته من جراء نسف الأنابيب في سورية.

واقترحت المملكة العربية السعودية في المؤتمر البترولي العربي الذي انعقد في بغداد، في نوفمبر«تشرين الثاني» ١٩٥٧م، أن تصبح «الأمة العربية» مالكة خطوط الأنابيب الجديدة التي يجري إنشاؤها في المستقبل.

في هذا الوقت، كان انخراط سورية المتسارع،[١٠٥]ضمن الفلك السوفيتي يقلق سعوداً عندما اتجه إلى الولايات المتحدة الأمريكية في بداية عام ١٩٥٧م، عشر سنوات بعد رحلته الأولى التي قام بها عندما كان ولياً للعهد. استقبله عند نزوله من الطائرة الرئيس إيزنهاور شخصياً، واستمع منه لشرح حول «مذهب إيزنهاور»، الذي وُضع لمحاربة التغلغل الشيوعي في الشرق الأوسط. وكانت الدبلوماسية الأمريكية تنتظر الكثير من هذه الزيارة بسبب ارتباط الاقتصاد السعودي بالولايات المتحدة الأمريكية. وعند عودته من واشنطن لم يتوقف الملك سعود في لندن، كما كانت الحال في الماضي، ولكنه توقف في مدريد، والرباط، وتونس،، وفي طرابلس الغرب، وأخيراً في القاهرة. وحيثما حلَّ، كان العاهل السعودي يجري محادثات مع نظرائه. وفي واشنطن كان قد قابل أيضاً الأمير عبد الإله ولي عهد العراق. وفي القاهرة تلقى دعوة رسمية من الحكومة السوفيتية لزيارة موسكو. وأخيراً، عاد إلى الرياض ليراقب من هناك الغليان الشعبي في سوريا، ثم في الأردن.

حينئذٍ، كان العرش الهاشمي في الأردن، مهدداً باضطرابات داخلية، وتلقى الملك حسين من سعود في شهر أبريل« نيسان» ١٩٥٧م، عوناً غير منتظر. لقد أعلن العاهل السعودي دعمه الشخصي للملك الشاب حسين حفيد الشريف حسين شريف مكة المكرمة السابق. وشهدت بغداد في شهر مايو«أيار» مصالحة ودية بين الهاشميين وآل سعود في أثناء اللقاء الذي جرى بين فيصل وسعود. وساد الاعتقاد إثرا ذلك أن الدبلوماسية الأمريكية على وشك النجاح في سعيها لعزل جمال عبد الناصر. ومن

الجدير بالذكر هنا أن الملك سعود، قبل أن يغادر واشنطن، كان قد أعلن تأييده«مبدأ إيزنهاور» بشأن الشرق الأوسط. وكان موقفه هذا بالتأكيد وراء التصويت الكثيف لصالح المبدأ في مجلس الشيوخ الأمريكي بعد شهر من ذلك. ولكن ذلك لم يمنع سعوداً من الارتداد عن «المذهب» بعدما بدأت مظاهر الفشل تبدو على المبدأ في أثناء الأزمة السورية-التركية في أكتوبر«تشرين الأول» ١٩٥٧م، التي عرض الملك سعود أن يتوسط فيها فرُفضت وساطته.

ولكن الإعلان الأمريكي-السعودي الذي نُشر في ٨ فبراير«شباط» ١٩٥٧م، بعد محادثات سعود إيزنهاور، اكتسب أهمية كبيرة. لقد تضمن اتخاذ [١٠٦] موقف لا لبس فيه من الجانبين كليهما من أجل علاقات أكثر متانة بين البلدين. وتوضح المادة الأولى في الإعلان نظرة الولايات المتحدة للمملكة العربية السعودية، ورأيها في بروزها على المسرح العالمي، وقد جاء في المادة:

«إن للمملكة العربية السعودية، بفضل منزلتها الروحية، وموقعها الجغرافي ومكانتها الاقتصادية، أهمية حيوية في الشرق الأوسط. وإنه من مصلحة السلام العالمي أن تُدْعم هذه المملكة سعياً لضمان استقرارها، وحماية مؤسساتها وتطويرها تدريجياً»[١] . إن النادر لا يقاس عليه، لأنني موافق على مضمون هذه المادة من الإعلان. ولكن جوهر الأمر يتعلق بالمقصود بالتطور التدريجي للمؤسسات.

إن ما نراه في هذه الأيام هو أن سعوداً يميل كل الميل إلى المواقف المثيرة، والسفر، ويتبع سياسة خارجية مثيرة: إنه «البدوي الطائر» الذي اتخذ قراراً نهائياً بأن كل ما يمس بلداً عربياً يمس شخصه الملكي [. . .].

وعلى الرغم من أن القسم الأكبر من الشعب السعودي متأخر وأمي، فإن بذور

---

(١) النص الكامل في : مقالات ووثائق، رقم ٤٦٩ بتاريخ ١٤ فبراير«شباط»، ١٩٥٧م، التوثيق الفرنسي، باريس.

التمرد، والتحرر الفردي، والجماعي التي تزعزع الشرق الأوسط بدأت تجد طريقها إلى قلب العربية السعودية.

وبينما كان نجم سعود يسطع على المستوى العالمي، كانت النقمة تتفاقم في بلاده: إنها نقمة البدو الذين يهددهم التقدم والتطور، وهي تختلف عن نقمة عمال البترول، أو الطبقة البرجوازية، والطبقة المتوسطة التي ما زالت في طور التكون؛ وما فائدة أن يكون أصل الجميع واحداً. ويبدو أن الإجراءات التي اتخذها الملك لتخفيف حدة هذه النقمة، مثل المنع القطعي للإضراب، وتوسيع صلاحيات الإخوان، كانت بدون قيمة أو فائدة. بل إن ردة الفعل الآلية عليها كان ازدياد النقمة. ولكن الأخطر من ذلك، هو انتشار الميول القومية بين العمال، ففي أكتوبر«تشرين الأول» عام ١٩٥٧م، أعلن العمال العرب في أرامكو أنهم [١٠٧] سينسفون المنشآت البترولية إذا ما تعرضت سورية لعدوان خارجي. وهذا يعني أنه بإمكان حفنة من الرجال إزعاج سعود، وحرمانه من مورده الأساسي، بقطع عائدات البترول عنه، وأنهم جاهزون للتحرك عندما يتلقون الأوامر من الخارج. إنه الوجه الآخر للقومية العربية، التي تهدف إلى إقامة الوحدة بين الشعوب ضد حكامهم[1].

(١) كل ما كتبه المؤلف قراءة غير عارفة للمجتمع العربي السعودي وللأسس التي يقوم عليها، وكل ما ذكره المؤلف من مفاهيم غريبة على المجتمع السعودي كان مصيرها الزوال، وبقي الأصلح والأمثل، كتاب الله وسنة رسوله ﷺ التي يُدار العباد والبلاد على هديها. (المترجم).